الفصل الأول

تاريخ تطور الحضارات وعوامل القيام والسقوط

(الحضارة السومرية، البابلية، الإغريقية، الصينية، الفرعونية، الفينيقية، روما القديمة)

الحضارة السومرية

نشأت الحضارة السومرية بين نهري دجلة والفرات جنوب شرقي العراق حاليًا، وهو ما يعرف ببلاد ما بين النهرين ومعناها الإغريقي (ميزوبوتامي)[١]، حيث تشير المصادر التاريخية إلى أنها بدأت سنة (٣٥٠٠) قبل الميلاد، وازدهرت واستمرت حتى قرابة (٢٠٠٠) قبل الميلاد، وبذلك تعد أول حضارة في العالم. وقد بلغ أقصى اتساع للإمبراطورية السومرية قبل القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد على يد القائد (لوجلالمند) ملك مدينة أدب[٢] (٢٥٢٥ ق.م- ٢٥٠٠ ق.م)، وامتدت من جبال طوروس حتى جبال زاغروس في إيران، ومن الخليج العربي حتى البحر الأبيض المتوسط. ثم

---

(١) دياكوف، ف وكوفاليف، س: **الحضارات القديمة**، ترجمة نسيم واكيم اليازجي، دار علاء الدين، دمشق، ط٣، ٢٠٠٩م، (ج١-ص٨١).

(٢) مدينة أدب: عاصمة الإمبراطورية السومرية التي امتدت من جبال طوروس إلى جبال زاجروس ومن الخليج العربي حتى البحر المتوسط، وهي مدينة عامرة تزينها المعابد، وذات خضرة وأشجار. انظر: الحموي، شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله: **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ١٩٩٣م، (مج١-ص١٤).

obeikan.com

ذابت وامتزجت بحضارة بابل وحضارة الآشوريين بحسب ما أشارت إليه الألواح الطينية المدونة بالكتابة المسمارية التي ترجع إلى مدة ظهور الحيثيين[١].

وقد تعرف الباحثون إلى حضارة سومر[٢] عن طريق الكتابات السومرية التي دونها السومريون المنحدرون من أصول قديمة واستوطنوا وادي الرافدين من عصور ما قبل التاريخ، أو أنهم جاؤوا بهجرة من خارج القطر في مدة ما في أواخر تلك العصور[٣].

وقد سُمِّيت مدينة سومر بهذا الاسم للتعبير عن الإنجاز الذي قامت به قوة بشرية جماعية أنشأت هذه المدينة، وهي الشعب السومري الذي كانت له لغة وديانة وحضارة مشتركة[٤].

وهناك أربع نظريات تفسر أصل السومريين:

- الأولى أنهم من أصول أناضولية جاؤوا إلى شمال وادي الرافدين في تاريخ مبكر، ثم نزحوا واستقروا في جنوبي العراق القديم المسمى في التوراة (أرض شنعار).

---

(١) البدري، جمال وقرقوتي، حنان: **الحضارة السومرية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، دار النفائس، بيروت، ٢٠١١م، (ص٢٤٥).
الحيثيون: شعب هندوأوروبي، سكنوا آسيا الصغرى وشمال بلاد الشام منذ (٣٠٠٠ ق. م) في نفس المدة التي سكن جيرانهم السومريون بلاد الرافدين، وهم من قبائل الأناضول الهندوأوروبية التي تعرف باسم (ختى). ورد ذكرهم في النصوص المكتوبة بالمسمارية باسم بلاد ختي في مناطق الأناضول، وكان سكانها يسمون أنفسهم نسيين، واعتمدت النصوص الحديثة باللغة العربية صيغة الاسم الوارد في التوراة وهي الحثيون. انظر: بارو، أندري: **سومر فنونها وحضارتها**، ترجمة وتعليق عيسى سلمان وسليم التكريتي، عالم الكتاب، بيروت، ط٢، ١٩٩١م، (ص١٣٥).

(٢) سومر: مدينة سومرية قديمة تسمى حاليًّا (تل عقار) الذي يقع بالقرب من مدينة بدرة في محافظة الواسط في العراق، وتقع شرق نهر دجلة في منطقة تقع بين بلاد سومر وبلاد عيلام، وكانت تسمى أيضًا (دوروم). انظر: عطا، بشار: **سومر**، جامعة بغداد، بغداد، ١٩٩٧م، (ص٨٨).

(٣) باقر، طه: **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، شركة الوراق للنشر المحدودة، لندن، ٢٠١٢م، (ص٧٤).

(٤) توينبي، أرنولد: **تاريخ البشرية**، ترجمة نقولا زياده، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ط٥، ٢٠١٠م، (ص٩٤).

- والثانية أنهم من أصول فارسية، بدليل العلاقة والصراع مع (سوسة) و(عيلام) خلال تاريخهم، فجاؤوا واستقروا في السهل الرسوبي للعراق القديم.
- والثالثة أنهم من أصول آسيوية، وتحديدًا من وسط آسيا، هاجروا منذ الألف الخامس قبل الميلاد واستقروا في جنوبي العراق القديم، وأنشؤوا أول حضارة فيه.
- والرابعة أنهم جماعة عراقية محلية ظهرت في شمالي العراق، ثم هاجرت إلى جنوبه واستقرت فيه، واشتق اسمها من سام بن نوح عليه السلام [١].

والراجح أن السومريين من بقايا قوم نوح، نزلوا في شمالي العراق قرب جبل الجودي بعد انتهاء الطوفان العظيم، واستقروا فيه في بادئ الأمر، ثم نزحوا إلى جنوب العراق تحت ضغط الأقوام والجماعات المجاورة، وأنشؤوا أول حضارة في التاريخ القديم.

سنن قيام الحضارة السومرية، وعوامل ازدهارها، والشواهد الدالة على قوتها

ترتكز غالبية الحضارات على تكوين أنظمة حكم قادرة على تنفيذ إستراتيجية واحدة لتحقيق التطور في المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتربوية والدينية، فالتطور هو عصب الحضارة الذي يعبر عما وصلت إليه من تقدم ورقي، وذلك يستدعي تنفيذ أيديولوجية موجهة نحو تنفيذ سياسات الدولة في مدة محددة من الزمن، في المجالات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والتربوية، والعسكرية، والأمنية، وفقًا لأفكار القائمين على حكم الدولة وإدارتها وتصوراتهم.

ونظرًا إلى قصور النواحي الإعلامية في العصر القديم نتيجة اتسام تقنيات الاتصال والإعلام بالبدائية، والاعتماد المطلق على الإشارات والرموز في ضوء اختلاف اللغات واللهجات، فقد انحصر تأثير الحضارات القديمة في المجالات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والدينية.

---

(١) البدري وقرقوتي: **الحضارة السومرية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٢٤٥).

أ. العوامل السياسية

نزح السومريون من شمال العراق إلى جنوبه لتفادي الاصطدام بالأقوام المجاورة التي فاقتهم قوة في ذلك الوقت، وأيضًا تعايشت المدن السومرية خلال القرون الخمسة أو الستة الأولى من تاريخ المدن السومرية من دون أن تتصادم فيما بينها. وحين بدأت المدن السومرية في الاتساع بعد إزالة المناطق العازلة من المستنقع الذي كان يحيط بها، ظلت المدن السومرية المتماسة تحتفظ كل منها باستقلالها وأنظمة حكمها السياسية المنفردة[١].

وقد أسهم التطور التدريجي في إنشاء العديد من المدن السومرية المستقلة التي تضمنت من الشمال إلى الجنوب: (سيبارو)[٢]، و(كيش)[٣] و(مجموعة تلال شرق بابل)، و(أكشاك)[٤] التي تقع على نهر دجلة، و(لاراك) و(نيبور) اللتان تقعان بالقرب من مدينتي (كيش) و(بابل)، واسمها الحالي (نفر)، و(أدب) واسمها الحالي (بسمايا)،

---

(١) توينبي، أرنولد: **تاريخ البشرية**، مرجع سابق، (ص٩٥).

(٢) سيبارو: تعني باللغة الآشورية مدينة الطيور، كانت مدينة سومرية قديمًا وبابلية لاحقًا، تقع على الضفة الشرقية من الفرات قرابة ٦٠ كيلومترًا شمال بابل. انظر: عبودي، هنري س.: **معجم الحضارات السامية**، جروس برس، طرابلس ـ لبنان، ط٢، ١٩٩١م، (ص٣٨).

(٣) كيش: وتسمى أيضا (كيشاتو) بالأكدية، وهي المعروفة الآن بـ (تل الأحيمر)، وهي منطقة أثرية في العراق كانت في السابق إحدى المدن الرئيسة للسومريين، وتبعد عن مدينة بابل قرابة اثني عشر كيلو مترًا شرقًا، وتبعد عن العاصمة بغداد ثمانين كيلومترًا جنوبًا، وحسب الأساطير السومرية تعد كيش أول مدينة يتربع عليها ملك بعد الطوفان الكبير الذي ذكر في الأساطير السومرية والديانات اليهودية والمسيحية والإسلام. انظر: الحموي، **معجم البلدان**، (ج٤-ص٤٩٧).

(٤) أكشاك: مدينة قديمة في بلاد سومر كانت تقع شمال موقع مدينة آكد، وينسبها بعض المؤرخين إلى بابل القديمة، موقعها غير محدد، تشير الكتابات القديمة إلى وقوعها بين نهري دجلة والفرات حيث كانت قريبة من مدينة كيش. وموقع مدينة أكشاك يسمى حاليًّا (تل عمر)، ويقال بأن موقعها كان في مدينة سلوقية (المدائن حاليًّا) التي تقع جنوب شرق العاصمة بغداد. انظر: ميلارت، جيمس: **أقدم الحضارات في الشرق الأدنى**، ترجمة محمد طلب، دار دمشق، دمشق، ط١، ١٩٩٠م، (ص١٥٤).

و(أوما) وتعرف باسم (جوخة)، و(لجش) واسمها الحالي (الحبة)، و(باد- تيبيرا)، و(أورك) التي تقع على بعد مئتين وسبعين كيلومترًا جنوب بغداد، وذكرت في التوراة باسم (أرك) واسمها الحالي (الوركاء، أو الورقاء)، و(لارسا) التي تقع على بعد عشرين كيلومترًا شمالي الفرات واسمها الحالي (سنكرة)، و(أور)، و(أريدو). وقد تميزت هذه المدن بقصورها الفخمة ومعابدها الضخمة، وبنى السومريون أسوارًا لحمايتها من الغزاة، كما اختاروا معابدهم في مكان مرتفع وسط المدن، وكانت تحيط بفناء المعبد ورش النحاسين، والنقاشين، والخبازين، وصانعي الأسلحة، والموظفين، والكتّاب[١].

وازدادت المدن نموًّا، وكلما كانت تسيطر على قطع كبيرة من الأراضي أو يخضع لها مدن أخرى زادت قوتها ودرجة تطورها، وأطلق على حاكمها لقب (لوكال)؛ ويعني الملك الذي كان يتولى معالجة الطوارئ الحربية والإشراف على النشاط الديني؛ ما دفع رؤساء المدن إلى الهيمنة على بعضهم بعضًا للسيطرة على أكبر قدر من مدن سومر بهدف الحصول على لقب (لوكال)، وفي حال سيطرتهم فقط على مدنهم كان يطلق عليهم (إنزي) أو وكيل الإله المحلي، والذي كان يُختار من أسرة شهيرة ليؤدي مهام متنوعة، من أهمها: ممارسة مهام الكاهن الأكبر، وقيادة مرتزقة المعبد، والتحكم في اقتصاد المعبد، والإشراف على أعمال البناء والري، ولكن لم يكن يسمح للملك بالتصرف في أملاك المعابد[٢].

وقد تمتعت كل مدينة باستقلالها السياسي أو الإداري أو باللامركزية سواء في التنظيم أو العمران، فكان السكان ينتخبون (جمعية عمومية) للتشاور والبحث في المسائل التي تهم أهل المدينة، مثل اختيار كبار الحكام، وإعلان الحرب، وانتخاب حاكم المدينة. وقد عرفت البلاد نظام الأسر الحاكمة بداية من التاريخ الواقعي للسومريين

---

(١) البدري وقرقوتي: **الحضارة السومرية _ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٢٤٦).

(٢) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص٨٨).

فـي مدينـة (كيش)، ثم فـي مدينة (أور)، ثـم في مدينـة (أوروك)، حيـث كان من أبرز حكام الأسـرة الأولى في مدينة (كيش) الملك (إتانا)، كما كان من أبرز حكام الأسـرة الأولى في مدينة (أورك) الملك (جلجامش)[١].

أمـا الجيش فقـد كان منظمـة شـعبية تضـم جنودًا غيـر متفرغيـن، ولكـن يعملون فـي الحـرث والزرع والرعي فـي أرض المعابد، وظهـرت وظيفـة إدارة المعابد عن طريق الموظفيـن الذيـن يصـدرون توجيهاتهـم لمجموعة من الكتاب، مع تشـكيل حرس خاص للملك، وتعد الحاجة إلى الاسـتفادة من شـبكة الري، وتعميق السـلطة على العبيد[٢] من أهم العوامل التي وحدت البلاد سياسيًّا.

يعـد الحاكـم السـومري (إتانا) ملك مدينة (كيش) أول من وحد بلاد سـومر عام (٢٠٠٨ ق.م)، وفي عام (٢٧٠٠ ق.م) سـيطر ملك مدينة (كيش) (إنمار جاسـي) على بلاد سـومر بعد انتصاره على دولة (عيلام)، حيث كان لهذا التوحد أكبر الأثر في تطور الحضارة السومرية وازدهارها[٣].

وهكذا يتضح أن أهم العوامل السياسية التي أسهمت في تطور الحضارة السومرية:

- نمو المدن، وتجنبها الحروب والصراع في مراحل نشأتها الأولى.
- الحاجة لاستخدام شبكة الري بين المدن المتجاورة.
- العمل بمبدأ اللامركزية الإدارية والسياسية في أنظمة الحكم والإدارة.
- رغبـة بعض الحكام في الظفـر بلقب لـوكال (ملك) الذي دفـع لتوحيد البلاد تحت قيادة واحدة.

---

(١) البدري وقرقوتي: الحضارة السومرية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة، (ص٢٤٦ـ٢٤٧).

(٢) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١ـص٨٢ـ٨٣).

(٣) البدري وقرقوتي: **الحضارة السومرية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٢٤٦ـ٢٤٧).

ب. العوامل الاقتصادية

ظهرت لدى السومريين أعمال النحت والصناعات البدائية والخزفية لتنبئ بامتلاك العمال والنحاتين صفات فنية تعبر عما وصلوا إليه من مهارة، فضلًا عما وصلت إليه الحضارة من ثراء.

في البداية استقر الشعب السومري على المرتفعات التي لا تصلها الفيضانات، وكانوا يعيشون على الصيد، والزراعة بالمنكاش، وتربية الماشية، ويصنعون الخزف الملون والأدوات النحاسية، وكان الناس يقطنون أكواخًا من آجر وخيزران، وبعد توسع المدن وزيادة سكانها ودمج بعضها ببعض طواعيةً أو عن طريق الغزو من المدن المجاورة للاستفادة من شبكة الري، ارتفعت الإنتاجية الزراعية[١]، وأسهم اختراع العجلة في استخدام الحيوانات في الحرث والجر والنقل بين المدن المجاورة. كما اهتم السومريون بالصناعة، فكانوا حرفيين مهرة، وبرع الكثير منهم في سبك المعادن ونحت الأحجار، ونشأت صناعة النسيج والخزف والأسلحة والدروع، بجانب صناعات أخرى تشير إلى مهارة السومريين في سبك النحاس والذهب والفضة وتشكيلها مثل الأواني الفخارية والمجوهرات[٢].

كما كانت إنتاجية المحاصيل المروية من نهري دجلة والفرات في هذه المدة التاريخية كبيرة إلى درجة كافية لكي يعيش السومريون ويموتوا برفاهية[٣]، في ضوء استغلال العبيد قوىً عاملة مجانية، فقد شكل عبيد (لاغاش)[٤] نصف السكان، وكانت

---

(١) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص٨٨).

(٢) البدري وقرقوتي: **الحضارة السومرية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٢٥٠-٢٥١).

(٣) توينبي: **تاريخ البشرية**، (ص٩٥).

(٤) لاغاش: مدينة أثرية في العراق، كانت تعد إحدى أقدم مدن السومريين، تعرف أيضًا باسم (تل الهبة). تقع لاغاش غرب منطقة الكرمة القريبة من البصرة وشرق مدينة أورك حاليًّا التي تقع على بعد اثنين وعشرين كيلومترًا شرق مدينة الشطرة في محافظه ذي قار. انظر: البدري وقرقوتي: **الحضارة السومرية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٢٥٢).

المصادر الرئيسة للعبودية الحروب وشراء العبيد من البلدان المجاورة للعمل في الأنشطة كافة مقابل الحصول على الطعام والمأوى[١].

أما بالنسبة إلى التجارة، فقد اتسعت تجارة السومريين، وصدروا الأدوات المعدنية والمنسوجات الصوفية، والبلح، والحبوب، وامتدت تجارتهم من البحر الأبيض حتى وصلت إلى نهر السند. بينما استوردوا النحاس والحجارة من عمان، والقصدير من إيران وسورية، والفضة والرصاص من جبال طوروس، والخشب من الجبال الشمالية الشرقية، والحجارة الكريمة من باكستان، وعرق اللؤلؤ من الخليج العربي، والأصداف من شبه جزيرة الهند، وأسهم تمهيد طرق التجارة البرية في رواجها، كما أسهمت السفن السومرية الضخمة في دفع التبادل التجاري وعمليات التصدير والاستيراد[٢].

وقد تحكمت العائلات الكبيرة في الإنتاج الزراعي بامتلاكها المزارع الضخمة وتشغيل العبيد فيها، حيث امتلك النبلاء أراضي شاسعة، وكذلك المعابد التي خصص لها أراض زراعية غالبية مزارعيها من العبيد، ونسبة قليلة من الأحرار يزرعون لحساب المعبد في مقابل جزء من المحصول أو الحصول على منتجات أخرى، كما كان كبار كهنة المعبد والقسيسين يتمتعون بأراض ضخمة يعمل بها العبيد من دون مقابل أو الأحرار مقابل أجر[٣].

مما سبق يتضح أن أهم العوامل الاقتصادية التي أسهمت في تطور الحضارة السومرية:

- ارتفاع الإنتاجية الزراعية بسبب استغلال شبكة الري في توفير مصدر ري دائم للحقول الزراعية.

---

(١) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص٨٥).

(٢) البدري وقرقوتي: **الحضارة السومرية - موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٢٥٢).

(٣) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص٨٧).

- اختراع العجلة الذي أسهم في تدجين الحيوانات، واستخدامها في الحرث والجر والنقل بين المدن المجاورة.
- اهتمام السومريين بالصناعة، فكانوا حرفيين مهرة، وبرع الكثير منهم في سبك المعادن ونحت الأحجار.
- ارتفاع إنتاجية الأراضي الواقعة بين نهري دجلة والفرات.
- استغلال العبيد قوىً عاملة مجانية.
- اتساع التجارة البرية والبحرية لسومر، ورواج عمليات التصدير والاستيراد سواء من خلال الطرق البرية الممهدة، أو من خلال الطرق البحرية باستخدام السفن السومرية الضخمة.

ج. العوامل الاجتماعية

ظهرت الطبقات المختلفة في المجتمع السومري، وكان أشدها تأثيرًا طبقة العبيد الذين أسهموا بجهودهم في ازدهار الحضارة السومرية.

وبصفة عامة تكون المجتمع السومري من طبقات خمس، هي[١]:

- طبقة الكهنة التي تدير أملاك المعبد الضخمة من الأراضي التي يشرف عليها الحاكم، إضافة إلى إدارتهم وإشرافهم على السجلات لسيدهم ولزملائهم في الجمعية العمومية.
- طبقة الحرفيين العاملين في المعبد، أو في الورش الصغيرة، وصغار مالكي الأرض.
- طبقة المأجورين الذين لا يملكون الأراضي، ويعملون بالأجر سواء لدى المعبد أو النبلاء.

---

(١) البدري وقرقوتي: **الحضارة السومرية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٢٥٤).

- طبقة العبيد الذين يعملون في خدمة المعبد أو خدمة النبلاء في المجالات كافة.
- أما الطبقة الخامسة فهي[١] طبقة النبلاء الذين امتلكوا الأراضي الشاسعة، وتوارثوها من آبائهم وأجدادهم من العائلات الكبيرة، وكذلك كبار القسيسين، وكانوا يستخدمون في أراضيهم الفقراء من الأحرار إلى جانب العبيد.

إذًا، يتضح أن أهم العوامل الاجتماعية التي أسهمت في تطور الحضارة السومرية:

- امتلاك النبلاء والمعبد وكبار القسيسين أراضي زراعية شاسعة لاستغلالها في الزراعة.
- استغلال العبيد في الزراعة والصناعة وغيرها من دون مقابل.
- حسن إدارة أملاك المعابد.

د. الشواهد الدالة على قوة الحضارة السومرية

ثمة شواهد دالة على ما وصلت إليه الحضارة السومرية من قوة، يأتي في مقدمتها المصنوعات الفخارية التي حملت طابعهم المميز بالرسوم، فضلًا عمّا سجله السومريون من رسوم وكتابات على الحجر والخشب، توضح انتقال المجتمع السومري من طور البداوة إلى طور صناعي وتجاري وعمراني، يتضمن إقامة المعابد والزقورات (المصاطب المدرجة التي تحتاج إلى خبرة هندسية عالية)، وإنشاء القصور الفخمة، فضلًا عن الأواني والمشغولات الذهبية التي عثر عليها في مدافن ملوكهم، والتي تشير أيضًا إلى إتقانهم سبك المعادن وتشكيلها وبصفة خاصة الذهب والنحاس والفضة،

(١) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص٨٦-٨٧).

حيث خلفت الحضارة السومرية الآلاف من الألواح المسمارية[١] باللغة الأكادية، فقد عثر في موقع مدينة (نيبور) على عشرات الآلاف من الألواح الطينية التي تحتوي على الكتابات المسمارية، فضلًا عن احتواء الوثائق السومرية على معطيات حول مناهج التعليم، وتدوين أنظمة الري والدورات الزراعية، وكيفية إدارة شؤون الزراعة، فقد أسهموا في تطوير شؤون الري، ونجحوا في اختراع العجلة التي ساعدتهم على استخدام الحيوانات في الزراعة والتجارة. كما تشير الألواح المسمارية السومرية التي اكتشفت في مواقع المدن السومرية إلى أن السومريين برعوا في علوم الرياضيات والفلك والطب[٢].

تضمنت النقوش السومرية مشاهد عديدة توضح مشاهد الصيد أو العبادة أو الملكيات الخاصة، ويشير بعضهم إلى أن التطور الثقافي يرجع إلى نقل السومريين هذه الثقافة (الكتابة والنقش أو الحفر والأختام) من الدول المجاورة التي غزوها، ما يفتح الباب أمام فكرة الارتقاء التقدمي[٣].

ولا تنتسب اللغة السومرية إلى أي من اللغات المعروفة، فهي لغة ملصقة مقطعية رمزية، حيث تنشأ الكلمات بدمج مفردين أو أكثر لتشكيل كلمة واحدة، فكلمة (لوكال) وتعني الملك تتكون من مقطعين الأول (لو) ويعني (الرجل)، والثاني (كال) وتعني (العظيم)، أي إن الملك هو الرجل العظيم. أما الكتابة السومرية فكانت بالخط المسماري على ألواح مصنوعة من الطين، وظلت تمثل لغة الاتصال بين دول المنطقة ألفي سنة تقريبًا. وقد أسست بعض المدارس لتدريب الناسخين على الكتابة بعد انتشار

---

(١) الألواح المسمارية: ألواح مصنوعة من الطين أو الحجر أو الشمع أو المعادن، كانت تدون عليها الكتابات السومرية قبل ظهور الأبجدية بقرابة (١٥٠٠) سنة، وطورت الكتابات المنقوشة باستخدام المسامير التي كانت تنحت النقوش على الألواح بالمسامير، ولذلك سميت اللغة المسمارية.

(٢) البدري، جمال وقرقوتي حنان: **الحضارة السومرية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، مرجع سابق، (ص٢٤٦ـ٢٥٤).

(٣) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، مرجع سابق، (ج١ـص٨٣).

الكتابة المسمارية، وأطلق على المدارس بيوت الألواح، وتضمنت المناهج المدرسية تعليم الدراسات العلمية: تعليم اللغة السومرية، والرياضيات، والنباتات، والحيوانات، والدراسات الأدبية التي تشتمل على الشعر والأساطير والملاحم والقصص الديني، كما برع السومريون في علوم الرياضيات، والطب، والفلك، عن طريق جهودهم المتنوعة التي تمثلت في ما يأتي[١]:

- كانوا أول من أسس النظم التجارية والمصرفية.
- عرفوا أنواعًا من الموازين والمكاييل القانونية التي رسموها على الألواح المسمارية.
- استخدموا عقودًا مكتوبة بأشكال مختلفة.
- كانوا أول من سن قانونًا مدنيًّا مكتوبًا.
- عرفوا الطريقة الستينية في العد التي ما تزال مستخدمة في تقسيم اليوم إلى (٢٤) ساعة، والساعة إلى (٦٠) دقيقة، والدقيقة إلى (٦٠) ثانية والدائرة إلى (٣٦٠) درجة.
- كانوا أول من بنى الصروح الضخمة في (أور)، و(أوروك)، و(كيش)، وبصفة خاصة الزقورات[٢] التي تحتاج إلى حسابات هندسية ورياضية.
- عرفوا بعض الكواكب، مثل عطارد.
- بنوا العقود والأقواس والقباب الأولى في تاريخ البشرية، فهم أول من أوجد القبة.

---

(١) البدري وقرقوتي: **الحضارة السومرية _ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٢٤٨_٢٥٥).

(٢) الزقورات: الأهرام الرافدية في بلاد ما بين النهرين وهي عبارة عن معابد مدرجة كانت تبنى في سوريا والعراق ثم إيران. ومن أشهر الزقورات عالميًّا: زقورة أور في العراق التراثية قرب مدينة الناصرية حاليًّا بمحافظة ذي قار جنوب العراق، وزقورة عقرقوف قرب د. انظر: ميلارت: **أقدم الحضارات في الشرق الأدنى**، (ص١٣٨).

openkan.com

- برعوا في استحداث التنظيمات العسكرية، وأبدعوا في استخدام أدوات الحرب.
- برعوا في صناعة السلع الخزفية، وفي فن نحت الأحجار والتماثيل، وصنعوا الأختام التي استخدمت في الجهات الحكومية.

سنن سقوط الحضارة السومرية والعوامل التي ساعدت على انهيارها

إن ضعف أنظمة الحكم، وتنامي الطموح لدى بعض الجماعات عن طريق الحراك الاجتماعي يجلب البيئة المناسبة للصراع السياسي والاجتماعي والاقتصادي، فتهتم كل طائفة بتنمية مواردها على حساب الشعوب -التي قد تثور- أو تنضم لكل طرف من أطراف الصراع، وتكون النهاية المحتومة بسبب الصراع السياسي على الحكم، واهتمام كل طرف بحشد أنصاره وزيادة قوته وموارده على حساب أبناء الوطن، فترتفع الأسعار وترتفع الضرائب المفروضة على الرعية، وتزداد نسبة الفقر، ما يعجل انهيار الحضارة وسقوطها.

وهناك عوامل عدة أسهمت في ضعف الحضارة السومرية وانهيارها، لعل من أهمها:

أ. العوامل السياسية

أدت الرغبة الجامحة لدى حاكم كل بلدة سومرية في الحصول على لقب (لوكال) عن طريق ضم البلدان المجاورة إلى اشتعال الصراع السياسي، فنجم عنه معارك حامية الوطيس ترتب عليها خسائر كبيرة في المجالات الاقتصادية وفي الأرواح، فقد كان خيرة المحاربين من شباب الجماعات ضحايا الحروب، كما كان السومريون يدفعون ثمنًا باهظًا لتلك الحروب.

obeikan.com

ويمكن توضيح تأثير العوامل السياسية في انهيار الحضارة السومرية بالمظاهر الآتية[١]:

- النزاع الحربي بين (لاغاش) و(أوما) في أيام (إيناتم)[٢] حول امتلاك قناة تقع على تخوم الدولتين.
- رغبة كل دولة في السيطرة على قناة المياه، ومن ثمَّ نشبت الحروب بين الدول السومرية المتجاورة بسبب المياه.
- قيام (لوغلزغيري) باحتلال غالبية دول سومر لتوحيدها، وما ترتب على ذلك من خسائر في الأرواح والأموال.
- الاضطرابات الداخلية التي عانت منها المدن السومرية حتى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد.
- استيلاء (سرجون) على إمبراطورية (لوغالزغيري) في حروب طويلة مدمرة.
- وقوع سومر تحت حكم الغوتيان الذين قضوا على الأسرة السرجونية عام (٢٢٣٠ ق.م).
- حروب (يوتوهيجال) ملك مدينة (أور) لاسترداد سومر من يد الغوتيان أو (أبالسة الجبال) عام (٢١١٨ ق.م).
- استيلاء (العيلاميين) الذين جاؤوا من وسط سوريا على بلاد سومر وأسر حاكمها.

---

(١) توينبي: **تاريخ البشرية**، (ص٩٦-١٠٠)؛ البدري وقرقوتي: ال**حضارة السومرية** _ **موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٢٤٧-٢٤٨).

(٢) إيناتم: ملك (لاغاش) الذي هزم ملك (أوما) بعد صراع بسبب قناة تقع على تخوم الدولتين، واستطاع السيطرة على (أوما) واحتلالها بالكامل وضمها إلى دولته عام (٢٤٧٠ ق.م). انظر ميلارت: **أقدم الحضارات في الشرق الأدنى**، (ص١٥٣).

أي إن الاضطرابات السياسية التي قادت إلى حروب عسكرية مدمرة كانت من أهم أسباب سقوط الحضارة السومرية بعد أن وصلت إلى أوج قوتها وعظمتها.

تتلخص أهم العوامل السياسية التي أسهمت في سقوط الحضارة السومرية بما يأتي:

١. رغبة حاكم كل بلد في مد نفوذه على حساب البلدان المجاورة.
٢. الحروب الناتجة من الصراع على السلطة.
٣. الاضطرابات الداخلية.

ب. العوامل الاقتصادية والاجتماعية

تسببت الفجوة الكبيرة بين الطبقات الاجتماعية، وسيطرة النبلاء والقسيسين وكهنة المعبد والأسر الحاكمة على غالبية الثروات ومصادر الرزق في تدهور الحضارة السومرية واندثارها.

أسهم الصراع الطبقي في مشكلات اجتماعية خطيرة، حيث سيطر النبلاء على الثروات، ومارسوا شتى أنواع السيطرة على العبيد المزارعين، بجانب الهيمنة التي أثارت غضب المنتجين المباشرين ومقاومتهم، حيث آذى الملك (لوجالندا) حقوق المشاعات، وأقام رقباء في كل مشاعات (لاغاش)، وفرض عليهم ضرائب تعسفية لمصلحته ومصلحة كهنته، ولذلك قام الرقباء بنهب الناس لدفع تلك الضرائب وتحقيق أرباح ومنافع لهم، فانتزعوا من الفلاحين مواشيهم وطيورهم، وأوانيهم النحاسية، وألبستهم، وخيرة الأشجار وأطيب الثمار، وكبدوا الناس تكاليف باهظة في مقابل التصريح بدفن موتاهم أو إقامة المآتم والولائم، فضلًا عن مصادرة أجمل الخراف البيضاء، وفرض ضريبة خمسة شيقلات من الفضة على كل رأس، وإدخال حقوق الجمارك على الوثائق والأعمال القضائية. وحين جاء الملك (أوركاجينا) منع الابتزاز ودفع المال، وعزل المراقبين من المشاعات، ولكن النبلاء جابهوه بمقاومة عنيفة ليحافظوا على سلطات اقتصادية

obeikan.com

واسعة ويتحكموا في مقدرات الناس وأرزاقهم[١]، وهكذا فبالرغم من الثورة الاجتماعية الإصلاحية التي قادها (أوركاجينا) لنشر الحرية وتحقيق العدالة الاجتماعية، إلا أن مساعيه أحبطت بعد هزيمته من قبل (لوغلزغيري) الذي أعاد الأمور على ما كانت عليه، واستمرت الأوضاع في التردي نتيجة استغلال النبلاء والحكام ومعاناة الشعوب والمحكومين، وإهمال أحوال البلاد، ما ترتب عليه ضعفها، وتوالت الحروب التي أدت إلى تدمير البنى الأساسية وحرق المزارع، فضلًا عن مقتل الزراع والصناع، أو تركهم مزارعهم وحرفهم واشتغالهم بالقتال الذي منح الفرصة لاحتلال بلاد سومر بعد أن حل الضعف بها وساءت أحوالها الاقتصادية والاجتماعية[٢].

وفي ما يأتي أهم العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي أسهمت في سقوط الحضارة السومرية:

١. الصراع الطبقي.
٢. استغلال النخبة الحاكمة المسيطرة للعبيد والفقراء.
٣. نظام رقباء المشاعات الذي كبد الناس ضرائب ونفقات باهظة وسلب ممتلكاتهم، واستولى على ماشيتهم وأشجارهم ومزارعهم وطيورهم.
٤. تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بسبب الانشغال عن الزراعة والصناعة والتجارة بالحروب.

الحضارة البابلية

نشأت الحضارة البابلية على ضفة نهر الفرات في بلاد ما بين النهرين، وتشير المصادر التاريخية إلى أنها من أقدم حضارات العالم، حيث بدأت سنة (١٨٩٤) قبل الميلاد، وازدهرت واستمرت حتى قرابة (١١٦٥) قبل الميلاد. واتخذت بابل من سومر

---

(١) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١ـص٨٨ـ٨٩).

(٢) توينبي: **تاريخ البشرية**، (ص٩٦).

عاصمة لها، وتمتد المدينة من الشمال إلى الجنوب بطول كيلومترين اثنين، وعرضها من الشرق إلى الغرب ألف ومئتا متر[١].

قامت الحضارة البابلية أساسًا على الزراعة، وجنس سكان دولة بابل نتيجة امتزاج السومريين والآكاديين، فهي دولة أسسها (حمورابي) عام (١٧٦٣ق.م)، ثم هزم آشور عام (١٧٦٠ ق.م)، وأصدر قانونه (شريعة حمورابي). وفي عام (١٦٠٣ق.م) استولى ملك الحيثيين (مارسيليس) على بابل، مثلما استولى الآشوريون عليها عام (١٢٤٠ ق.م) بمعاونة العيلاميين. وظهر (نبوخذ نصر) ملكًا لبابل (١٢٤٥ق.م- ١١٠٤ ق.م) ودخلها الكلدانيون عام (٧٢١ ق.م)، ثم دمر الآشوريون مدينة بابل عام (٦٨٩ ق.م)، إلا أن البابليين قاموا بثورة ضد حكامهم الآشوريين عام (٦٥٢ ق.م) وغزوا آشور عام (٦١٢ ق.م)، واستولى (نبوخذ نصر الثاني) على أورشليم عام (٥٨٧ ق.م)، وسبى اليهود عام (٥٨٦ ق.م) إلى بابل. وهزم الفينيقيين عام (٥٨٥ ق.م)، وبنى حدائق بابل المعلقة. ثم استولى الإمبراطور الفارسي (قورش) على بابل عام (٥٣٨ ق.م) في زمن الملك الكلداني (بلشاصر) وضمها لإمبراطوريته[٢].

أي إن الحضارة البابلية ورثت الحضارة السومرية، وأضافت إليها مزيدًا من أوجه التطور والعمران، وقبعت خلف ازدهارها أيضًا عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية.

سنن قيام الحضارة البابلية وعوامل ازدهارها والشواهد الدالة على قوتها

قامت الحضارة البابلية أساسًا على الزراعة، إلا أنها حملت معها بعض خصائص الحضارة السومرية وسماتها، سواء في النواحي السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية، والتي كان لها تأثير سواء في قيام الحضارة أو سقوطها.

---

(١) السحمراني، أحمد: **الحضارة البابلية _ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، دار النفائس، بيروت، ٢٠١١م، (ص٨١).

(٢) ديورانت، ول: **قصة الحضارة: نشأة الحضارة، الشرق الأدنى**، ترجمة زكي نجيب محمود ومحمد بدران، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠١م، (مج١_ج٢_ص١٨٨_١٩٢).

أ. العوامل السياسية

أسهمت الأجواء السياسية وما فيها من تحولات وتبدلات في ازدهار الحضارة في بعض الأوقات وتخلفها في أوقات أخرى، إلا أن التاريخ الفعلي لازدهار الحضارة البابلية يرجع إلى إنشاء مدينة بابل على يد سادس ملوك الدولة البابلية الأولى (حمورابي) عام (١٧٦٣ ق.م)، الذي هزم آشور عام (١٧٦٠ ق.م)، وأصدر قانونه (شريعة حمورابي) في عام (١٦٠٣ق.م)، وكانت سياسة حمورابي التوسعية مصدر قوة الحضارة البابلية، حتى سقطت بابل بعد فاصل من المعارك والخلافات مع البلدان المجاورة في يد من ملك الحيثيين (مارسيليس)، كما استولى الآشوريون عليها عام (١٢٤٠ ق.م) بمعاونة العلاميين. وظهر نبوخذ نصر[١] المؤسس الحقيقي للدولة البابلية الثانية عام (١٢٤٥ق.م- ١١٠٤ ق.م)، الذي استولى علي أورشليم عام (٥٨٧ ق.م)، وسبى اليهود عام (٥٨٦ ق.م) إلى بابل. وهزم الفينيقيين عام (٥٨٥ ق.م)، وبنى حدائق بابل المعلقة[٢].

وكانت شريعة حمورابي من أهم إنجازات هذه المرحلة، فقد وضعت أول قانون مدني مدون عرفته البشرية[٣]، كما أنجز حمورابي الوحدة بين المدن السومرية في منتصف القرن الثامن عشر قبل الميلاد، باستثناء جنوب سومر الذي ظل خاضعًا لسيطرة العيلامي (ريمسين)، وفي الشمال كانت السلطة البابلية غير مستقرة، بالرغم

---

(١) نبوخذ نصر الثاني: الاسم الآكدي لنبوخذ نصر هو (نبو كودورو أوسور)، ومعناه نابو يحمي ذريتي، و(نابو) هو إله التجارة عند البابليين وهو ابن الإله(مردوخ)، أطلق عليه الفرس اسم) بختنصر) ومعناه السعيد الحظ. كان هذا الملك قائدًا حربيًّا ورجلًا عمرانيًّا محبًّا للبناء. قاد حملة إلى مصر وانتصر على الفراعنة، واستولى على قسم من فلسطين، ونهب القدس قرابة (٥٨٦ ق.م). وأرسل كل اليهود البارزين أسرى إلى بابل، وهكذا جعل نفسه أعظم الملوك في الشرق الأدنى في عصره. انظر: عبودي: **معجم الحضارات السامية**، (ص١٤٥).

(٢) ديورانت: **قصة الحضارة: نشأة الحضارة، الشرق الأدنى**، (مج١-ج٢-ص١٨٨-١٩٢).

(٣) السحمراني: **الحضارة البابلية - موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٩٢).

مـن اتحـاد (حمورابـي) وملك ماري زيمريليـن، لذلك تصدى حمورابي لريمسـين ووحد الجنوب كله، وكذلك تخلى (زيمريلين) عن مواجهته، ما جلب إمبراطورية بابلية مركزية مسـتبدة، حيث أحكم حمورابي قبضته على الدول التي ضمها لملكه خوفًا من انفصالها، ولكن كانت هناك مظاهر من اللامركزية الإدارية في إدارة المدن وتعيين جمعية عمومية تديـر كل بلـد، شـأنها في ذلك شـأن الحضارة السـومرية، إلا أن الوحـدة زادت من قوتها وتقدمها في المجالات كافة[١].

وهكذا يتضح أن أهم العوامل السياسية التي أسهمت في تطور الحضارة البابلية:

- الامتزاج بين السومريين والأكاديين.
- إخضاع حمورابي معظم البلدان، وتوحيدها تحت ولاية بابل.
- اسـتفادة ملـوك بابـل مـن الخبـرة السياسـية التـي كونها ملـوك أسـرة (أور) الثالثة وملوك إيزن ولارسا.

ب. العوامل الاقتصادية

اعتمـدت الحضـارة البابليـة بصورة كبيـرة على تطوير وسـائل الزراعـة والاهتمام بالتجـارة، وإنشـاء المشـروعات المائيـة اللازمـة للري، بجانـب جمع الضرائـب وغيرها واسـتخدامها فـي المشـروعات العامة وفي التعبير عما وصلت إليـه حضارة بابل من رقي وثراء.

عاشت إمبراطورية بابل أساسًا على الزراعة ومنتجاتها، ويعد توافر مصادر المياه عـن طريـق القنوات التي أمر بشـقها حمورابي مـن أهم العوامل التي سـاعدت على وفرة الإنتـاج الزراعـي وتنوعه، وكان الملك اسـميًّا المالـك الأعلى لأرض الإمبراطورية كلها، فيما قسـم منها مخصص للمعابد، وتنقلت الأرض بين أيدي الأسـر في العائلات الأبوية

---

(١) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، مرجع سابق، (ج١-ص٩٦).

والعائلات الصغيرة، والمشاعات، ومما يلفت النظر أن تطور الإنتاج من البضائع والسلع المختلفة والنهج العبودي؛ كلاهما أسهم في توطيد الملكية الخاصة، ولكن المالكين كلهم، سواء كانوا موظفين ممتازين ملكيين، أو كهنة، أو تجارًا كبارًا ومرابين، لا يأتي دخلهم الرئيس من الأراضي بل من وظيفتهم لدى القصر أو المعبد. كما ظهر في المدن حرفيون يعيشون من حرفهم، بينما كانت التجارة تتطور بصورة ملحوظة[١].

وقد اعتنى البابليون منذ عهد (حمورابي) بمجاري المياه واستثمارها في تنمية الزراعة لتحقيق الأمن الغذائي. وتحققت النهضة البابلية الثانية في عهد (نبوخذ نصر) الذي اهتم بالتخطيط العمراني والتجارة واستثمار نهر الفرات، وأمسك البابليون في عهده بطرق التجارة الموزعة في أكثر من اتجاه بفعل اتساع رقعة الدولة البابلية، وبفضل الاستقرار والنفوذ الذي منحه لها موقع بابل الإستراتيجي على تقاطع طرق التجارة من الاتجاهات كلها، سواء الهند، أو الصين، أو آسيا الصغرى، أو الغرب الآسيوي وأفريقيا. كما أنشأ (نبوخذ نصر) خزانات المياه الضخمة، وحفر القنوات إليها للاستفادة من مياه الأمطار في الري، وعرف البابليون المحراث المتطور، واستخدموا البرونز والحديد وصنعوا منهما الآلات، وبرعوا في صناعة النسيج وتصديره للخارج، ولكنهم لم يعرفوا النقود، بل استخدموا أسلوب المقايضة في البيع والشراء، واستخدموا وحدة من الفضة يسمونها (شيقل)[٢].

أقام (حمورابي) في مدينة بابل هيكلًا ضخمًا ومخزنًا واسعًا ليخزن فيه القمح للآلهة والكهنة، فكان ذلك أسلوبًا بارعًا في الاستثمار جنى منه الربح الوفير عن طريق الطاعات الممزوجة بالرهبة التي يقدمها إليه الشعب، واستخدم ما حصل عليه من الضرائب في تدعيم سلطان القانون والنظام، واستخدم ما تبقى بعد ذلك في تجميل عاصمة ملكه، فأنشئت القصور والهياكل في أرجاء بابل جميعها، وأقيم جسر على نهر

---

(١) المصدر نفسه، (ص٩٨-١٠٠).

(٢) السحمراني، أحمد: **الحضارة البابلية - موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٨٣-٨٤).

الفـرات لكـي تمتـد المدينـة علـى كلتـا ضفتيه، وأخذت السـفن التـي لا تقـل بحارتها عن تسـعين رجـلًا تمخـر عباب النهر صعـودًا ونـزولًا، وأصبحت بابل عـام (٢٠٠٠ ق.م) من أغنى البلاد التي شهدها تاريخ العالم قديمه وحديثه[١].

يتضح مما سبق أن أهم العوامل الاقتصادية التي أسهمت في تطور الحضارة البابلية:

- ارتفاع الإنتاجية الزراعية بسبب إنشاء قنوات ري متعددة وتنظيم الري.
- وفرة الإنتاج الزراعي.
- تطور التجارة بصورة ملحوظة في ضوء الاهتمام بتعبيد طرق التجارة البرية، إضافة إلى طرق التجارة البحرية والنهرية.
- ارتفاع إنتاجية الأراضي الواقعة بين نهري دجلة والفرات.
- استمرار استغلال العبيد قوًى عاملة مجانية.

ج. العوامل الاجتماعية

ظهرت في المجتمع البابلي طبقات متعددة، وكان أشدها تأثيرًا طبقة العبيد الذين أسهموا بجهودهم في ازدهار الحضارة البابلية.

بصفة عامة تكوَّن المجتمع البابلي من طبقات ثلاث:[٢]

- الطبقة الراقية (الأرستقراطية)، وعرفت باسم (لاميلو)، وهم سادة المجتمع ووجهاؤه.
- الطبقـة العامـة (الموشـكينو)، وهـم المسـاكين والفقـراء مـن عامة الشـعب الأحرار الذين عملوا بالمهن جميعها، ولكنهم افتقروا للحقوق كلها التي تمتعت بها الطبقة الأرستقراطية.

---

(١) ديورانت: **قصة الحضارة: نشأة الحضارة، الشرق الأدنى**، (مج١-ج٢-ص١٩٣).

(٢) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص١٠٠-١٠٣).

- طبقة الرقيق (واردوم)، وهم الذين ولدوا بالرق وأسرى الحرب، وكانت لهم بعض الحقوق والامتيازات، مثل: حق التملك، وإدارة بعض الأعمال الخاصة بهم، واقتراض المال، حتى إنهم كانوا يستطيعون شراء أنفسهم، كما منحت النساء الحرائر حق التملك وحقوقًا شرعية أخرى، وقد عرف أن الآباء -عادة- هم من يختارون الأزواج لبناتهم. ومما يثير الدهشة إعطاء طبقة الرقيق حقوقًا أكثر من الطبقة العامة. وقد حافظت العبودية على سماتها، فكانت ملكية العبد مطلقة للمالك، يمكنه أن يبيعه ويبادله بالنقود، وأن يوصي به، وأن يرهنه كأي سلعة، وإذا رفض العبد الامتثال لأوامر سيده فمن حق السيد تشويهه؛ ببتر عضو من أعضائه.

وقد كان المجتمع البابلي أبويًّا، والسلطة في نطاق العائلة أو الأسرة بيد الرجل، ودونت عقود الزواج، ومنحت المرأة مهرًا، وإذا طلقت فإنها تسترد ما أحضرته معها من بيت أبيها عند طلاقها، كما كان لها حضانة الأبناء، وبالرغم من سيادة حالة من الفوضى بين الرجال والنساء قبل الزواج، إلا أن عقد الزواج كان يفرض الوفاء للحياة الزوجية، وتطبق عقوبة الإعدام عند ارتكاب أي من الزوجين جريمة الزنا؛ بأن يربط الزانيان ويلقيا في الماء، وكذلك تطبق عقوبة الإعدام في حالات الاغتصاب، وكان الطلاق مباحًا، وكذلك التعدد بشرط أن تكون الزوجة عقيمة وأن تكون الزوجة الثانية من فئة العبيد[1]. وكان من أهم أسباب الطلاق والانفصال بين الزوجين الزنا مع العقم والضعف في الإدارة المنزلية. وكان الميراث يذهب للذكور فقط، ولا تأخذ الإناث من الميراث شيئًا إلا إذا انعدم وجود ذكور، ومع ذلك منحت الحضارة البابلية المرأة كثيرًا من الحقوق؛ كحق التعليم، وحق العمل بالتجارة وامتلاك الحوانيت.

إذًا، أسهم في تطور الحضارة البابلية عوامل اجتماعية، أهمها:

---

(١) السحمراني: **الحضارة البابلية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٩١-٩٢).

١. امتلاك الحاكم أراضي الدولة جميعها، وجنيه أرباحًا ساعدت على توفير الأموال اللازمة للتطور والنماء.
٢. امتلاك الطبقة الراقية مشاعات ضخمة ساعدت على وفرة الإنتاج الزراعي.
٣. استغلال العبيد في الزراعة والصناعة وغيرها من دون مقابل.
٤. تنظيم أمور الزواج والطلاق.
٥. الاستفادة من دور المرأة في المجتمع عن طريق منحها حقوقًا متنوعة من أهمها حق التعليم وحق العمل بالتجارة وامتلاك الحوانيت.

د. الشواهد الدالة على قوة الحضارة البابلية

يأتي العمران واهتمام البابليين بفن العمارة في مقدمة الشواهد الدالة على قوة حضارتهم، وهو ما تجلى في برج بابل الذي فاق ارتفاعه أهرام مصر الفرعونية، إضافة إلى حدائق بابل المعلقة التي تعد من عجائب الدنيا السبع القديمة، والطرز المعمارية الفخمة التي جعلت بابل عاصمة الشرق الأقصى كله، وأعظم عواصم العالم القديم أبهة وفخامة[١].

كما أكدت الوثائق التي عثر عليها أنشطة ملوك بابل في البناء وتشييد المعابد وتجديد أبنيتها، وحفر أنهار الري وإنشاء السدود وإقامة الأسوار والحصون والقلاع، وقد دونت الأخبار المتعلقة بهذه الأعمال في المسلات الحجرية، وفي الألواح الطينية، أو القصور وغيرها من الأبنية الرسمية، إضافة إلى المعاجم الصغيرة المدونة على الألواح الطينية التي تحدد أسماء المدن والأماكن وطرقها ومسالكها، والرسائل الرسمية وغير الرسمية، والنصوص الرياضية[٢].

---

(١) ديورانت: **قصة الحضارة: نشأة الحضارة، الشرق الأدنى**، (مج١ـج٢ـص١٩٧ـ١٩٨).
(٢) باقر: **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، (ص٤٨٦ـ٤٩٠).

كان للعوامل الثقافية دور مهم في ازدهار الحضارة البابلية، فقد ظهرت الكتابات البابلية -شأنها شأن السومرية- على جدران المعابد المصنوعة من الطمي والغضار (الطين اللزج)، وتضمنت النقوش السومرية مشاهد للصيد، أو العبادة، أو الملكيات الخاصة، أو لانتصارات ملوك بابل وفتوحاتهم[١].

كانت الكتابة البابلية بالخط المسماري على ألواح مصنوعة من الطين الرطب بقلم ذي طرف شبيه بالمنشور الثلاثي أو الإسفين، فإذا امتلأ اللوح كتابة جُفف أو أُحرق، فشكل مخططًا غريبًا طويل البقاء، وإذا كان المكتوب رسالة نثر عليها التراب الناعم، ووضعت في مظروف من الطين، وبصمت بخاتم مرسلها الأسطواني. وكانت الألواح الطينية المحفوظة في جرار مصنفة ومرتبة على رفوف تملأ عددًا كبيرًا من المكتبات في هياكل الدولة البابلية وقصورها[٢]، كما أنشئت أيضًا المدارس التي أطلق عليها بيوت الألواح. وقد اهتم البابليون بعلم الفلك، وكانت المؤسسات المختصة تصدر تقاويم تحتوي تفاصيل عن الشمس والقمر، وعن الكسوف والخسوف المتوقعين خلال مدة التقويم.

والإنجازات البابلية الآتية توضح دور العوامل الثقافية في ازدهار الحضارة البابلية[٣]:

- استخدام علم الفلك في التنجيم والتنبؤ بالغيب، وتحديد أحوال الجو والفصول ومواسم الزراعة والأمطار ومواقيت الأعياد الوطنية والدينية، وجباية الأموال، والأحوال الشخصية.

---

(١) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص٨٣).

(٢) ديورانت، ول: **قصة الحضارة: نشأة الحضارة، الشرق الأدنى**، مرجع سابق، (مج١-ج٢-ص٢٣٦).

(٣) السحمراني، أحمد: **الحضارة البابلية_موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، مرجع سابق، (ص٨٥-٩٢).

- البراعة في فن تلوين القرميد وزخرفته بالرسوم، والرسم على معدن البرونز، وعلى العاج.
- صناعة الأختام لاستخدامها في التوقيع على الوثائق أو الصكوك.
- نسج الأساطير الشعبية وترويجها.
- البراعة في علم الحساب والأعداد، واستخدام الطريقة الستينية في العد، والتي ما تزال مستخدمة في تقسيم اليوم إلى (٢٤) ساعة، والساعة على (٦٠) دقيقة، والدقيقة إلى (٦٠) ثانية، والدائرة إلى (٣٦٠) درجة.
- الإبداع في العمران والفنون، وتدوين تاريخهم على المسلات الطيفية.
- تطبيق قانون حمورابي، وعدّهم بأن نزاهة القضاء هي السبيل لتحقيق العدالة، وفي تنظيم التعاملات المالية والتجارية والاجتماعية، وكذلك تحديد العقوبات وتوقيعها.
- تطوير علوم الحساب والفلك والتقاويم ونظام العمارة، وشق القنوات، وبناء خزانات المياه للزراعة، وصناعة المحراث المتطور.

في ما يأتي أهم الشواهد الدالة على عظمة الحضارة البابلية وقوتها[١]:

- امتزاج حضارة بابل بمواريث حضارية من موقعها في بلاد ما بين النهرين، أو إنجازات وافدة من الجوار وبالتفاعل مع أقوام آخرين.
- تدوين الأحداث باللغة المسمارية على الألواح الطينية بدقة متناهية ووصف شامل، ما أسهم في حفظ الإنجازات الحضارية والإبداعات الفكرية.
- شريعة حمورابي أو قوانين حمورابي التي تعد أول قانون مدني مكتوب عرفته الأمم وحفظه التدوين من الضياع، وهو من أكثر الشواهد التي تشير إلى عظمة حضارة بابل، وما تضمنته من قوانين لتنظيم الزراعة والصناعة والتعاملات

(١) المرجع السابق، (ص٨٩-٩٢).

التجارية، ورعي المواشي واستئجار المراكب والعربات، إضافة إلى التنظيم العمراني، ما يدل على أن بابل امتلكت حضارة متكاملة الحلقات، وكان لها إنجازات مميزة في الميادين كافة.

- الإنجازات العلمية المدونة التي قدمت للفكر الإنساني إبداعات وابتكارات مفيدة في مجالات الحساب والفلك والتقاويم، ونظام العمارة، وشق القنوات، وبناء خزانات المياه للزراعة، والمحراث المتطور.

سنن سقوط الحضارة البابلية والعوامل التي ساعدت على انهيارها

بالرغم من ازدهار الحضارة البابلية وتنوع مصادرها وفنونها وآثارها التي حفظها التدوين من الضياع، إلا أن رواج التجارة والثراء الفاحش الذي شهدته المدينة وانعكس على مظاهر الحياة فيها من ترف وأبهة، كان من أهم أسباب سقوطها، حيث بعث الثراء على الدعة والراحة والخمول، وأغرى أصحاب البطون الجائعة والسواعد القوية بغزو البلاد للاستيلاء على ثرواتها.

وهناك عوامل عدة أسهمت في ضعف الحضارة البابلية وانهيارها، لعل من أهمها:

أ. العوامل السياسية

يعد الصراع من أهم العوامل السياسية لانهيار الحضارة البابلية، بدءًا من الصراع الذي استمر مئة عام لإخضاع الإمارات العمورية لحكم بابل، والذي لم يتحقق إلا في عصر حمورابي، حيث تمكن حمورابي من ضم المدن السومرية تحت حكم بابل إضافة إلى ضم مملكة أشور. كما أضعف ملوك أور نبلاء سومر وآكاد، لكن العموريين والعيلاميين قضوا عليهم نهائيًّا، فلم يعد أمام ملوك بابل إلا القبائل العمورية والمشاعات الحضرية والزراعية لسومر وآكاد، التي يسهل حكمها ضمن المناطق أو الأقاليم التي يديرها موظفون ملكيون. وقد عانى الجنوب السومري الاحتلال العموري الذي انتشر تدريجيًّا ليقضي على مساحات كبيرة من سومر، ما أسهم في

انهيار إمبراطورية بابل في عهد آخر ملكين من الأسرة البابلية الأولى نتيجة مهاجمة أربعة أعداء لها تباعًا: ساميو المناطق البحرية، وعيلاميو زاغروس، والحيثيون من الشمال، ومربو الخيول الكاسيت الذين استوطنوا شمال عيلام. فاحتلت القبائل البحرية جنوب الإمبراطورية البابلية، بينما احتل الكاسيت وسط بابل وشمالها، وفي أثناء المدة الأولى من احتلال الكاسيت لبابل عانت البلاد دمارًا رهيبًا وكسادًا اقتصاديًّا شديدًا[١].

وهكذا يتضح أن أهم العوامل السياسية التي أسهمت في سقوط الحضارة البابلية:

١. الغزو الخارجي لبابل طمعًا في ثرواتها.
٢. إشغال ملوك بابل في أربعة حروب متناوبة أرهقتهم وأسهمت في تبديد جهودهم لمواجهة الغزو.
٣. الدمار الذي خلفه احتلال مدن مهمة تحت سيطرة بابل، ومنع بابل من الاستفادة من مصادرها الاقتصادية.
٤. الدمار الرهيب الذي عاشته إمبراطورية بابل بسبب أعمال السلب والنهب التي قام بها الكاسيت عند احتلالهم بابل وسيطرتهم عليها.

ب. العوامل الاقتصادية والاجتماعية

أغرى الثراء الذي تعيشه بابل قبيلة الكاشيين[٢]، وبعد وفاة (حمورابي) بثماني سنوات اجتاحوا إمبراطورية بابل وعاثوا في أرضها فسادًا يسلبون وينهبون، ثم ارتدوا عنها، ثم شنوا عليها الغارة تلو الغارة، واستقروا آخر الأمر فاتحين حاكمين، ما جعل

---

(١) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص٩٦-١٠٦).

(٢) الكاشيون: أقوام سكنوا جبال زاكروس قبل غزوهم لبلاد الرافدين واسمهم مشتق من اسم إلههم (كشو). انظر: الحموي، (ج٤-ص١٣٥).

بلاد بابل مسرحًا للفوضى والاضطراب العنصري، ولم تسلم طرق التجارة من مخاطر إغارة اللصوص عليها، ما حد من الحركة التجارية والنشاط التجاري[١].

إضافة إلى ذلك، أسهم تفتيت الملكية الزراعية في ضعف الإنتاج الزراعي والتأثير سلبًا في الاقتصاد البابلي، حيث تقلص حجم الحقول الشاسعة التي كانت تحت تصرف الملك والمعابد ونبلاء الدم، وبعض الملكيات اختفت تمامًا، وأصبحت الملكية الصغيرة أو المتوسطة هي الصورة السائدة القائمة على استغلال عدد بسيط من العبيد. واستمر العبيد يتمتعون بميزات أكثر من الأحرار الفقراء، وكان من حقهم الزواج من حرة فيصبح أبناؤهم أحرارًا، ما أدى في النهاية إلى التناحر بين الأحرار والعبيد، وأوجد تناقضًا بين مختلف الشرائح الحرة، فقد كانت دولة العبودية (المدافع عن مصالح الطبقة المهيمنة) استبدادية ملكية مطلقة، حيث يحكم الملك بوساطة العديد من الموظفين والقضاة. وفي أثناء المرحلة الثانية من حكم الكاسيت بابل نُهبت المشاعات وأعضاؤها قبل أن يرتاح أصحابها من عناء الحرب، وتجدد الاضطهاد، وفُتحت ورشات لبناء معابد جديدة عن طريق تسخير الناس لخدمة القصر، وانتزاع أملاكهم وسلب أسر الفلاحين، واستيلاء الشيوخ على الأموال، وارتفاع أرباح المرابين، حيث راح بعضهم يفرض الضرائب الملكية ويسرقون الناس بلا رحمة[٢].

تتلخص أهم العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي أسهمت في سقوط الحضارة البابلية في ما يأتي:

١. الصراع بين العبيد والأحرار، والتناقض بين مختلف الشرائح الاجتماعية الحرة.
٢. الغزو الذي تعرضت له بابل طمعًا في ثرواتها.
٣. نقص الإنتاج الزراعي بسبب تفتيت الملكية الزراعية.

---

(١) ديورانت: **قصة الحضارة: نشأة الحضارة، الشرق الأدنى**، (مج١-ج٢-ص١٩٤-١٩٥).
(٢) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص١٠٤-١٠٦).

٤. نقص العائد التجاري بسبب الحروب، وضعف تأمين طرق التجارة.

٥. نهب المشاعات، وتسخير الناس لخدمة الملك من دون مقابل، وانتزاع أملاكهم وسلب ممتلكاتهم.

٦. فرض المرابين الضرائب على الناس وسرقتهم.

الحضارة الإغريقية

نشأت الحضارة الإغريقية في المدة من (١١٠٠ ق.م إلى ٧٥٠ ق.م)، حيث هاجر اليونانيون إلى موطنهم وقضوا على الحضارة الإيجية[١]، واتبعوا النظام الملكي باتخاذ قادتهم العسكريين والدينيين ملوكًا عليهم، فأخذ المجتمع اليوناني في التحضر شيئًا فشيئًا، فتطورت القرى والمدن، ونشأت عن المدن دويلات المدن التي كانت كل منها مملكة لها قوانينها الخاصة، وجيشها، وآلهتها، على طراز نظام دويلات المدن في العراق القديم في أثناء العصور التي أطلق عليها فجر السلالات[٢]. ولم يتعد الإغريق في أنظمة الحكم نظام دولة المدينة، وأصبح الملك محترمًا وحاكمًا قويًّا تقع على عاتقه حماية المدينة، وكان يساعده على إدارة شؤون الحكم وفض الخصومات مجلس شورى أو دار ندوة تجتمع للقضاء بين الناس. وقد وصل عدد دويلات المدن المئات في بلاد الإغريق[٣].

---

(١) الحضارة الإيجية: حضارة قامت في منطقة بحر إيجه قبل قيام الحضارة اليونانية. انظر: طقوش، محمد سهيل: الحضارة الإيجية - موسوعة الحضارات القديمة الميسرة، دار النفائس، بيروت، ٢٠١١م، (ص٧٧).

(٢) بدأ عصر فجر السلالات في العراق في عام ٢٨٠٠ ق.م، واستمر لمدة ستة قرون، ويعرف بالعصر السومري القديم أو بعصر دويلات المدن، حيث لم تتوحد البلاد خلاله تحت حكم مملكة واحدة. انظر: باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، (ص٥٧٢).

(٣) المصدر نفسه، (ص٥٨٠).

سنن قيام الحضارة الإغريقية وعوامل ازدهارها والشواهد الدالة على قوتها

شهدت الحضارة الإغريقية تبدلات وتحولات عميقة بداية من القضاء على حضارة المسينية[١]، وتكون الدويلات الصغيرة في عهد الملوك، ومرورًا بنهاية عهد الملوك وظهور عهد النبلاء الذي تراجع بعد ظهور عهد الطغاة، الذي لم يلبث أن قضي عليه ليبزغ عهد الديموقراطية، ما جعل العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية هي الأكثر تأثيرًا في الحضارة اليونانية.

أ. العوامل السياسية

مرت هذه الحضارة بمراحل سياسية أربع في أثناء تطورها، هي[٢]:

عهد الملوك (١١٠٠_٧٥٠ ق.م)

كان الملك من يملك أكبر مساحة من الأراضي، ويتمتع بسلطات تشريعية وتنظيمية وسياسية شبه مطلقة، ويعاونه مجلسان: أحدهما يضم الأعيان من رؤساء القبائل والعشائر، ويشارك أعضاؤه الملك في سلطاته بصورة متفاوتة وفقًا لقوة كل منهم وضعفه، أما المجلس الثاني فهو للعامة، واقتصر دوره على العلم بالأحداث، والموافقة على قرارات الملك ومجلس الأعيان. وقد مهد هذا العهد الطريق لقيام المدن التي اقتربت كثيرًا من معنى النظام السياسي الذي ينظم المدينة ويحدد حقوق مواطنيها وواجباتهم.

---

(١) الحضارة المسينية: يطلق عليها أيضًا الحضارة الهلادية، حيث قامت في بلاد اليونان في عصر البرونز، وقسمها علماء الآثار إلى ثلاثة عصور هي: العصر الهلادي القديم (٢٥٠٠_١٩٩٠ ق.م)، والعصر الهلادي الوسيط (١٩٠٠_١٥٥٠ ق.م)، والعصر الهلادي الحديث (١٥٥٠_١١٠ ق.م).، انظر: طقوش، محمد سهيل: الحضارة المسينية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة، دار النفائس، بيروت، ٢٠١١م، (ص٤٣٩).

(٢) طقوش، محمد سهيل: **الحضارة اليونانية (الإغريقية) ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، دار النفائس، بيروت، ٢٠١١م، (ص٥٠٥_٥٠٧)؛ باقر: **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، (ص٥٨٠_٥٨٨).

عهد النبلاء (٧٥٠_٦٢٥ ق.م)

سيطر النبلاء على الأراضي الزراعية الضخمة، وفقد الحكم الملكي مبرر وجوده، وأصبح الملك واحدًا من الطبقة الأرستقراطية التي انتزع أفرادها من الملك سلطاته، وبحلول القرن السابع قبل الميلاد سقطت الحكومات الملكية في أغلب المدن اليونانية، وحلت محلها حكومات جماعية تتكون من الطبقة الأرستقراطية التي ارتكز حكمها على دعائم ثلاث:

- **الدعامة الاقتصادية**: فالارستقراطيون أصحاب الأرض التي تغطي احتياجات السكان، فسيطروا على مقدرات المجتمع.
- **الدعامة العسكرية**: فهم أصحاب السيطرة على القوة العسكرية عن طريق امتلاك الخيل الضرورية لخوض الحرب والدفاع عن أملاكهم، وكان كل واحد منهم يتكفل بتسليح نفسه وأتباعه.
- **الدعامة القانونية**: حيث احتكم إلى القانون لتحديد حقوق المواطنين وواجباتهم، وأصبحت الطبقة الأرستقراطية سلطة تنفيذية، فأجرت تعديلات قانونية مهمة، مثل: إلغاء الصلاحيات العقابية التي كان يتمتع بها رؤساء الأسر، وتحريم الحروب الداخلية بين القبائل، ورفع المظالم إلى المحاكم المكلفة بالفصل في النزاعات وتوقيع العقوبات، وإحلال القانون محل القوة في إقرار الأمور.

عهد الطغاة (٦٢٥_٥٢٥ ق.م)

بعد أن صارت المستعمرات الإغريقية أسواقًا مهمة للتجارة اليونانية من بلاد اليونان نفسها، ازداد الطلب على البضائع والخدمات، ما أسهم في توسيع تجارة المدن اليونانية وصناعتها، حيث شهد عهد الطغاة ازدهارًا اقتصاديًّا متنوعًا ساعد -إلى حد كبير- على القضاء على عهد النبلاء، وظهور عهد الطغاة الذين أثروا بالثروة الجديدة، وسيطروا على الصناعة والتجارة، وسعوا لاغتصاب الأراضي بالقوة وضمها إلى أملاكهم الضخمة.

عهد الديموقراطية (٥٢٥_٤٠٠ ق.م)

بدأ هذا العهد منذ اغتيال آخر طاغية في أثينا قرابة عام (٥٢٥ ق.م)، ويمتاز هذا العهد بأحداث مهمة في تاريخ الإغريق جميعهم وفي تطور حضارتهم، حيث أسهم الازدهار الاقتصادي والتجاري الذي أنجزه الإغريق في عهد الطغاة في التمهيد لازدهار الحضارة الإغريقية في عهد الديموقراطية لأسباب عدة، من أهمها:

أ. انتقال أثينا الدولة الأهم في حكم الإغريق إلى نظام الحكم الديموقراطي.

ب. الحروب اليونانية الفارسية.

ج. الإمبراطورية الإثينية.

د. الحروب بين أثينا وإسبارطة[١].

هـ. ازدهار حضارة الإغريق.

وتعد أثينا وإسبرطة من أهم الأمثلة على تطور نظم الحكم والسياسة في الحضارة الإغريقية. فقد بدأ المجتمع الأثيني بالظهور في عهد النظام الملكي داخل إطار سياسي موحد في عهد الملك (ثيوسيوس)، الذي تحققت في عهده آخر حلقات التوحيد، وحين انتقل الحكم إلى الطبقات الأرستقراطية توزعت الصلاحيات الإدارية (التي كانت مركزة في يد الملك) على الحاكم كرئيس للجهاز التنفيذي والمشرف على الشؤون العسكرية، وستة قضاة، ورئيس الشؤون الدينية، وكانوا يشغلون مناصبهم مدى الحياة حتى تقلصت إلى سنة واحدة، بينما انتقلت الصلاحيات التشريعية إلى مجلس (الأريدباغوس)[٢]. وبعد سن القوانين التي تنظم علاقات أفراد المجتمع وتعاملاتهم تغيرت تلك القوانين في عهد (صولون) الذي حرص على أن تسهم هذه القوانين في

---

(١) إسبارطة: مدينة يونانية تقع على جانب نهر يوروتاس في بلاد اليونان القديمة، وكانت مستقلة وذاتية الحكم. انظر: طقوش: **الحضارة اليونانية (الإغريقية) _ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٥٠٨).

(٢) مجلس القضاء.

obeikan.com

التوفيق بين مصالح الطبقة الأرستقراطية وطبقة التجار، بينما يتعلق القسم الثاني بمعالجة مشكلات العامة. وقد أسهم (صولون) في وضع دستور أثينا الذي احتوى على المؤسسات والعناصر الأساسية في دولة المدينة وهي: الهيئة التنفيذية المنتجة المؤلفة من تسعة أعضاء يسمى كل واحد منهم (أرخون)، ومجلس الشيوخ المؤلف من رجال الطبقة الأرستقراطية لمناقشة القضايا والمسائل العامة جميعها، ومجلس العامة ويتكون من المواطنين الأحرار للموافقة على القرارات المهمة قبل أن تصبح شرعية. وقد انقسم المجتمع الأثيني إلى ثلاثة أحزاب هي: حزب الجبل، وحزب السهل، وحزب الساحل[١].

أما إسبرطة فكانت دولة عسكرية منذ بداية تاريخها، فقد اهتمت بقوة جسم الرجل والمرأة، وتدريب أفرادها على القتال باستمرار في إطار العقيدة العسكرية لليقورغ التي ارتكزت عليها فلسفة الحياة في إسبرطة، والمتمثلة بالقتال حتى آخر جندي، وكان الجندي الإسبرطي يفضل الانتحار على العيش بعد الهزيمة[٢].

وقد قام نظام الحكم في إسبرطة على قواعد أربع، هي: الملكية الثنائية، ومجلس الشيوخ، ومجلس الشعب، وعدد من المشرفين. أما الملكية الثنائية فتعني وجود ملكين على رأس الحكم تتوزع بينهما السلطات ويراقب كل منهما الآخر، ومجلس الشيوخ فمكون من ثلاثين عضوًا من كبار السن من الأسر الارستقراطية. ومجلس الشعب فمكون من كل إسبرطي فوق الثلاثين من عمره، وتعرض عليه المسائل العامة ذات الأهمية. وكانت سلطة المشرفين الخمسة هي الإشراف على القضايا المدنية، وتوسعت بعد ذلك لتشمل الرقابة على تصرفات الملوك ومحاسبتهم[٣].

وبذلك يتضح أن أهم العوامل السياسية التي أسهمت في تطور الحضارة الإغريقية:

---

(١) طقوش: **الحضارة اليونانية (الإغريقية) ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٥٠٨ـ٥١٠).

(٢) ديورانت، ول: **قصة الحضارة: الشرق الأقصى (اليابان) حياة اليونان**، ترجمة محمد بدران، مهرجان القراءة للجميع (مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠١م)، (مج٣ـج٦ـص١٤٨ـ١٥٠).

(٣) طقوش: **الحضارة اليونانية (الإغريقية) ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٥١٣ـ٥١٤).

١. تمهيد الطريق لنمو المدن وتنظيمها، وتحديد حقوق مواطنيها وواجباتهم.
٢. نمو الإقطاعات الضخمة في عهد النبلاء، وزيادة الإنتاج الزراعي وكفايته لاحتياجات بلاد اليونان.
٣. نمو التجارة والصناعة في عهد الطغاة لاتساع رقعة الدولة وتضخم الإنتاج.
٤. ضم مناطق جديدة لليونان أسهم في مد نفوذها وسلطانها وسيطرتها على مناطق جديدة، وزاد من حجم النشاط التجاري والصناعي مع الدول المجاورة.
٥. ازدهار الحضارة الإغريقية في عهد الديموقراطية بسبب ما ورثته من عهد الإقطاع من إنتاج وأنشطة اقتصادية متنوعة طورت حجم التبادل التجاري وزادته.

ب. العوامل الاقتصادية

في عهد الملوك كان العبيد المسؤولين عن النمو الزراعي والتجاري، بصفتهم قوة عمل مجانية، وبعد سقوط عهد الملوك وظهور عهد النبلاء استمر الحال على ما هو عليه، إلا أن النبلاء امتلكوا الأراضي الشاسعة القادرة على الوفاء باحتياجات السكان والسيطرة على المجتمع الإغريقي. وفي عهد الطغاة الذين صادروا الإقطاعيات الزراعية ووسعوها زاد الرخاء، وزادت الحضارة الإغريقية قوة، وتنوع الإنتاج الزراعي والصناعي، واتجه اليونانيون في أثناء هذا العهد إلى البحر للبحث عن موارد جديدة، ما أدى إلى هجرة جديدة إلى بلدان البحر الأبيض المتوسط استمرت حتى أواسط القرن السادس قبل الميلاد، ومع بداية القرن الخامس قبل الميلاد تناثرت المستوطنات اليونانية على شواطئ مقدونيا وتراقية والبحر الأسود وقورانية والشواطئ الجنوبية لإيطاليا، ما جعل هذه الحركة الاستيطانية تشكل مرحلة جديدة من مراحل تطور الحضارة الإغريقية، حيث ساعدت اليونانيين على معرفة أسواق التجارة العالمية، واقتبسوا نتيجة احتكاكهم بشعوب الشرق الأدنى القديم كثيرًا من علومهم ومعارفهم، وكان ذلك إيذانًا بظهور طبقة التجار التي تحالفت مع الطبقة الأرستقراطية لحماية

مصالحها، فأدى ذلك إلى ظهور نظام حكم الأقلية (الأوليغركي)، الذي ما لبث أن استبدل بحكم الطغاة من الأفراد أصحاب القوة والنفوذ، والذين ثارت عليهم الشعوب واغتالتهم لتصل الحضارة اليونانية إلى مرحلة الديموقراطية، التي حظيت بامتلاك إنجازات عهد النبلاء وعهد الطغاة من موارد اقتصادية متنامية أسهمت بقوة في ازدهار الحضارة الإغريقية[١].

إن التوسع اليوناني والهجرات إلى الخارج أسهمت بصورة كبيرة في تطور الحضارة اليونانية اقتصاديًّا، حيث صارت المدن اليونانية مراكز البلاد الاقتصادية، وكانت تحاط بضواح تجارية ومهنية، وانتقلت الحرف إلى المدن، وتطورت الصناعات بوتيرة عالية، وتشكلت شريحة من التجار وصانعي الأسلحة، وصكت اليونان النقود المعدنية في القرن السابع قبل الميلاد، ومن خلال أسلوب العمارة اليونانية ومخططات شوارعها العريضة وصروحها العظيمة عما وصلت إليه الحضارة اليونانية من رخاء اقتصادي[٢]. وتعد أثينا من المدن التي اعتمدت على الاقتصاد في إحياء الحضارة الإغريقية، حيث أقدمت على الصناعات والتصدير بالتجارة الخارجية، ثم غيرت أنظمتها السياسية، وأشركت بها الطبقات والكوادر الاقتصادية اللازمة لتنمية الدولة، وبدأت بزراعة أراضيها وخاصة الجبال الجرداء بأشجار الزيتون التي أصبحت من أهم مواردها الاقتصادية، وصنعت السفن، وأنشأت صناعات الفخار الجديدة لتصدير زيت الزيتون، وفتحت مناجم الفضة، وبذلك تفادت الاضطرابات السياسية والاجتماعية عن طريق أنشطتها الاقتصادية المتنوعة، وحققت ازدهارًا مهد السبيل للحضارة الإغريقية[٣].

---

(١) طقوش، محمد سهيل: **الحضارة اليونانية (الإغريقية) ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، مرجع سابق، (ص٥٠٦-٥٠٧).

(٢) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص٢٩٠).

(٣) باقر: **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، (ص٥٩٠).

وقد نجم عن الصراع بين أحزاب الجبل والسهل والساحل انتصار حزب الجبل بزعامة (بيزاستراتوس) الذي نصب نفسه حاكمًا على أثينا وقام ببعض الإجراءات التي أثرت بصورة كبيرة في المجتمع الأثيني، وتمثلت هذه الإجراءات في ما يأتي:

١. مصادرة بعض أراضي الطبقة الأرستقراطية، وتوزيعها على المعدمين من بين أفراد الطبقة العامة.
٢. فرض ضريبة على المنتجات الزراعية تعادل عشر المحصول، واستخدام هذه الضريبة في تقديم القروض لأنصاره فلاحي الحقول والبساتين في التلال بشروط ميسرة لكي يستعينوا بها على شراء محاريث جيدة وثيران قوية تجرها، ما أدى إلى زيادة المحاصيل الزراعية.
٣. تشجيع التجارة من واقع إحكامه السيطرة على مداخل البحر الأسود التي كانت تتحكم في عبور السفن المحملة بالقمح الذي تحتاجه أثينا.
٤. الاستيلاء على حصن (سيغيون) على الشاطئ الأسيوي لمضيق الدردنيل.
٥. تأسيس مستعمرة أثينية في سيستوس على الشاطئ الأسيوي المقابل لسيغيون.

يتضح مما سبق أن أهم العوامل الاقتصادية التي أسهمت في تطور الحضارة الإغريقية:

١. الازدهار الاقتصادي الناجم عن التوسع في الهجرات وضم أراض جديدة إلى بلاد اليونان.
٢. تحول المدن اليونانية إلى مراكز تجارية وصناعية لتزويد المدن الجديدة والمستعمرات بحاجتها من المنتجات والخدمات.
٣. تعرف اليونانيين إلى طرق التجارة واقتباسهم معارف وصناعات من دول الشرق الأدنى القديم التي احتكوا بهم.
٤. نهضة أثينا وتنويعها في اقتصادها كقاعدة للانطلاق نحو التطور والرخاء.
٥. استغلال العبيد قوًى عاملة مجانية.

٦. اتساع التجارة البرية والبحرية لبلاد اليونان، ورواج عمليات التصدير والاستيراد سواء من خلال الطرق البرية الممهدة، أو من خلال الطرق البحرية باستخدام السفن الإغريقية الضخمة.

ج. العوامل الاجتماعية

بعد امتزاج العنصرين الدوري[١] والآيوني[٢] استقرت تجمعات سكانية قبلية في تكوينها تتألف من مجموعة من كبار ملاك الأراضي الزراعية والرعوية، وكانوا إما أبطال حروب أو أبنائهم، وترأس المجتمع القبلي من يملك المساحة الأكبر من الأراضي ويتخذ لقب ملك. وبعدها حلت الطبقة الأرستقراطية محل الملك، ثم جاءت طبقة الطغاة الذين ثار عليهم الشعب اليوناني ليصل إلى مرحلة الديموقراطية، حيث أدى التحول من نظام الحكم الفردي إلى الديموقراطي إلى أن يصبح المجتمع اليوناني صاحب السلطة الفعلية في تصريف أموره[٣].

كان استغلال الإنسان للإنسان في أثينا وطيبة أقل قسوة منه في إسبرطة، فكان هذا الاستغلال يؤدي الغرض منه، إذ لم يكن بين الأحرار في أثينا طوائف ممتازة وأخرى غير ممتازة، وكان في مقدور الرجل أن يرقى بجهوده إلى أي مرتبة في الحياة، ولا تمييز طائفي بين العامل وصاحب العمل إلا في المناجم، أما في المهن الأخرى فكان صاحب العمل يشتغل مع عماله، وكان المقاولون بعضهم يستأجرون العبيد من أصحابهم للعمل

---

(١) العنصر الدوري: سكان مدينة إسبرطة ومؤسسوها. انظر: طقوش، **الحضارة اليونانية (الإغريقية) _ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٥٠٦).

(٢) العنصر الآيوني: سكان مدينة أثينا ومؤسسوها. انظر: باقر: **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، (ص٥٨٨).

(٣) طقوش، محمد سهيل: **الحضارة اليونانية (الإغريقية) _ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، مرجع سابق، (ص٥٠٥-٥٠٧).

وفق أجر يومي يدفع لمالكهم، وشكل وجود النقود عاملًا مهمًّا من عوامل ازدهار المجتمع والتعاملات التجارية[١].

وبعد انتصار حزب الجبل بزعامة (بيزاستراتوس) على حزبي السهل والساحل نصب (بيزاستراتوس) نفسه حاكمًا على أثينا وقام ببعض الإجراءات التي أثرت بصورة كبيرة في المجتمع الأثيني، حيث صادر بعض أراضي الطبقة الأرستقراطية ووزعها على المعدمين من أفراد الطبقة العامة، وقدم القروض الزراعية لفلاحي الحقول والبساتين، إضافة إلى عنايته بالنواحي الفنية والأدبية التي سطرت تاريخ المجتمع الأثيني، والتي كان من أبرزها ملحمتا الإلياذة والأوديسا. وبعد وفاة (بيزستراتوس) خلفه في الحكم ابنه (هبياس) الذي تحول إلى حاكم مستبد بعد مقتل أخيه (هيبارخوس)، وقامت ثورة ضده أطاحت بحكمه، ووضع (كليستنيس) الذي كان يتولى الجهاز التنفيذي دستورًا جديدًا للبلاد قسم فيه المجتمع الأثيني على أساس الإقامة الدائمة في أتيكا، فألغى القبائل الأيونية القديمة وأنشأ قبائل جديدة بدلًا منها، وجعل كل قبيلة أقسامًا ثلاثة يدعى كل قسم منها الثلث، موزعة بين أجزاء أتيكا الطبيعية: السهل، والساحل، والجبل، وكل ثلث مقسم بدوره إلى عدد من الأحياء يدعى كل حي منها ديموس، وجعل عضوية الحي أساسًا للمواطنة وللحقوق السياسية، كما جعل الأحياء أساسًا للتنظيم الإداري. أما إسبرطة فقد قام النظام الاجتماعي فيها على التنشئة الخشنة لجعل المجتمع الإسبرطي مجتمعًا عسكريًّا مستعدًّا للقتال في أي لحظة؛ لقمع أي تمرد يقوم به السكان المحيطون أو العبيد. وخضع الأطفال لإشراف الدولة منذ ولادتهم، فالأصحاء وضعوا تحت رعاية أمهاتهم أو مربيات تعيّنهن الدولة، أما الضعفاء والمشوهون فكانوا يتركون في العراء حتى يموتوا. وحين يبلغ الطفل السابعة من عمره يتلقى تدريبًا عسكريًّا مثلما يتلقاه جندي في الجيش الوطني، أما البنت وإن

(١) ديورانت، ول: **قصة الحضارة: حياة اليونان**، ترجمة محمد بدران، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠١م، (مج٤-ج٧-ص٦٩-٧٠).

كانت تترك لتربى في بيت والديها، إلا أنها كانت تتدرب على ألعاب الجري، والمصارعة، وقذف القرص، ورمي السهم عن القوس، لتصبح قوية البنية صحيحة الجسم صالحة للأمومة الكاملة[١].

سادت المجتمع الأثيني طبقات اجتماعية أسهمت في تطوره واستقراره تتمثل في ما يأتي[٢]:

١. طبقة المواطنين، وهم المواطنون الأحرار الذين ولدوا في أثينا.

٢. طبقة الغرباء، وهم الأحرار الذين ولدوا في بلاد أجنبية واتخذوا من أثينا موطنًا لهم، وكانت شرائع أثينا تضايقهم وتحميهم في آن واحدة، فكانت تفرض عليهم ما تفرضه من ضرائب على المواطنين، وتلزمهم بأداء خدمات شخصية للدولة، وتجندهم للخدمة العسكرية، إضافة إلى تأدية ضريبة الفرصة[٣]، وتحرم عليهم امتلاك الأرض والزواج من أسر المواطنين، ولا تسمح لهم بالانضمام إلى الهيئات الدينية أو اللجوء للمحاكم، بينما كانت ترحب بهم في المجالات الاقتصادية.

٣. طبقة المعاتيق، وهم الذين حرروا من العبودية؛ سواء أكان ذلك بافتداء أنفسهم بالمال، أم بشراء الدولة أو الأفراد لهم من سادتهم.

٤. طبقة عبيد أتكا الذين بلغ عددهم مئة وخمسة عشر ألف عبد، وكانوا إما أسرى حرب أو ضحايا غارات الاسترقاق أو أطفال أنقِذوا وهم ملقون في العراء. وقد عد التجار اليونانيون العبيد مصدر دخل؛ فيشترونهم ويبيعونهم

---

(١) طقوش: **الحضارة اليونانية (الإغريقية) _ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٥١٠-٥١٣).

(٢) ديورانت: **قصة الحضارة: حياة اليونان**، (مج٤-ج٧-ص٦٥).

(٣) ضريبة الفرصة: ضريبة كانت تفرضها أثينا على من يعيش في ظلها من الغرباء، مقابل منحه الفرصة للعيش والتمتع بالأمن والاستقرار داخل ربوع أثينا. انظر: ديورانت: **قصة الحضارة: حياة اليونان**، (مج٤-ج٧-ص٦٥).

كأي سلعة، وكان سادتهم يؤجرونهم للعمل لدى الغير في حالة عدم توافر عمل لديهم، وربما امتلك أفقر يوناني عبدًا أو عبدين.

مما سبق يمكن أن نجمل أهم العوامل الاجتماعية التي أسهمت في تطور الحضارة الإغريقية بما يأتي:

- منح عصر الديموقراطية حقوقًا متنوعة للأحرار، فأصبح الشعب هو المتحكم في مصيره.
- استغلال العبيد قوة منتجة في المجالات الاقتصادية جميعها.
- تنظيم الحكم والإدارة التي قامت على المساواة والجد والعمل.
- النشأة السيادية لمجتمع أثينا الذي اعتمد على القانون، والنشأة العسكرية لمجتمع إسبرطة الذي اعتمد على الخشونة والاستعداد الدائم للحرب.

د. الشواهد الدالة على قوة الحضارة الإغريقية

يأتي في مقدمة شواهد قوة الحضارة الإغريقية التماثيل والآثار التي تحتوي على كتابات توضح ما وصلت إليه الحضارة الإغريقية من تقدم وازدهار، وخاصة في مدينتي أثينا وإسبرطة اللتين صكتا النقود وجعلتاها وسيلة البيع والشراء، إضافة إلى الرخاء والتطور الاقتصادي ونمو الصناعات، وتطور التجارة بعد تأمين طرقها ومداخل البحر الأسود الذي سيطرت عليه أثينا، فكان بمثابة عامل نمو أسهم في ثراء أثينا وزيادة معدلات تبادلها التجاري مع الخارج ونشاط حركة التصدير والاستيراد منها وإليها، فضلًا عن التطور الكبير في الفنون والآداب، حيث أسهم الفلاسفة اليونانيون في تطور الفلسفة والعلم عن طريق استيعاب التراث الثقافي للشرق، بدايةً من (فيثاغورث) أبو الفلسفة المثالية، ومرورًا بـ (ديموكريت) الذي كتب مقالات متنوعة في الفلك (أسباب الظواهر السماوية)، وفي الفيزياء (أسباب الظواهر الجوية، وأسباب الظواهر الأرضية وغيرها)، وفي الرياضيات (تماس الدائرة والكرة، والخطوط والأجسام غير المعقولة)

وفـي الفن (الإيقاعات والهرموني، والقصيدة وسـواها)، وفي الزراعة والفن العسـكري، كمـا ذكـر أن الموجـودات كلها تتكون مـن جزئيات صلبة وغير قابلة للقسـمة. وكانت آراء (سقراط) وأفكاره ذات تأثير بليغ في حياة اليونانيين، وتعبيرًا عما وصلت إليه الحضارة اليونانية من رقي، ونادى بالديموقراطية للتخلص من الأحكام الجائرة واستغلال العبيد. وكذلـك أفلاطـون الـذي تطـرق لعالم الأفـكار كعالم مجـرد لا يعلمـه الإنسـان إلا معرفة سـطحية، ولكنـه كان مؤيـدًا للعبودية، فقد كانـت دولته المثالية تقوم علـى حماية النخبة واستغلال العبيد في توفير المتطلبات الاقتصادية اللازمة لمعيشة النخبة.

وجاء بعد أفلاطون تلميذه أرسـطو الذي استوعب مجالات المعرفة كلها، ولكنه مال نحو المثالية، وأسـهم إسـهامات ما زال تأثيرها سـاريًا حتى يومنا هذا، فهو أول من كتب علـم النباتـات، وأول من كتب في قوانين الفكر التحليلي، وفي علم الأخلاق، وعلم البيان، وعلم الشعر والكثير من الإنجازات في فروع العلم المختلفة، وفي علم السياسة الذي وضح فيه طبيعة الدول ومختلف أشـكالها وقدم نظريته في الدولة، ووضع العبيد ضمن الأسـرة في ضوء تأثره بأزمة ديموقراطية عبودية أثينا التي كانت تعد العبيد مثل الدواب والماشية المملوكة للأسرة، ولذلك مال إلى إسبارطة التي رأى فيها نظامًا أكثر مثالية. ولم يقتصر تأثير أرسطو على تطور الحضارة اليونانية فقط، بل الحضارة العالمية التي تأثرت بكتاباته وأفكاره بصورة كبيرة حتى نهاية القرن الخامس عشر في دول العالم جميعها[١].

وقد انتشرت الكتابة في المجتمع اليوناني عن طريق أبجديات يونانية مختلفة، حتى تغلبـت الحـروف الهجائية الأيونية، وخضعت اللهجات كلها في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد إلى لهجة مشتركة انبعثت معظمها من أثينا. واستخدمت الكتابة في الأغراض الدينيـة والتجاريـة فقط، ثم اسـتخدمت في الأغراض جميعها. وكان الشـعر الغنائي من أهم ملامح الحضارة الإغريقية، حيث عكس صورة المجتمع الأرسـتقراطي الذي يتميز

(١) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، ترجمة نسيم واكيم اليازجي، دار علاء الدين، دمشق، ط٣، ٢٠٠٩م، (ج٢-ص٣٧٣-٣٧٩).

بالمشاعر والأخلاق والأفكار، إضافة إلى أشعار الملاحم التي تمجد بطولات اليونان كحصار طروادة وطيبة وعودة المحاربين إلى أوطانهم. كما تعد القصائد الهومرية للشاعر (هوميروس) أقدم الملاحم في التاريخ، ومن أهمها الإلياذة والأوديسا. وتطور فن المسرح بصورة جلية، وأسهم في نمو علم البيان والخطابة وازدهارهما[١].

يمكن تلخيص أهم الشواهد التي تدل على عظمة الحضارة الإغريقية وقوتها في ما يأتي:

١. تدوين الأحداث باللغة اليونانية تدوينًا متناهيًا في الدقة ووصفها وصفًا شاملًا، ما أسهم في حفظ الإنجازات الحضارية والإبداعات الفكرية، وبصفة خاصة في مجال العلم والفلسفة.

٢. تميز الأدب اليوناني بالعالمية، وبروز موهبة أفلاطون وسقراط وأرسطو وما أنتجوه من أفكار وفلسفة مادية أسهمت في تعزيز مكانة الحضارة الإغريقية وامتداد أثرها خارج اليونان.

٣. استخدام الدساتير التي نظمت حياة الشعب وحددت حقوق طبقاته المتعددة وواجباتها.

٤. الطبيعية المتميزة للمدن اليونانية، واعتمادها فن النحت والتصوير بدرجة كبيرة تركت آثارًا واضحة تدل على عظمتها وشموخها.

سنن سقوط الحضارة الإغريقية والعوامل التي ساعدت على انهيارها

كانت الحروب الطويلة التي عاشتها الإمبراطورية الإغريقية منهكة، إضافة إلى الصراعات الداخلية الطاحنة بين الدويلات المتجاورة، ورغبة أثينا وإسبرطة كلتاهما في السيطرة على مدن اليونان، كل ذلك أصاب الحضارة الإغريقية بالضعف والتدهور

---

(١) طقوش: **الحضارة اليونانية (الإغريقية) ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٥١٩ـ٥٢٤).

بسبب ما تكبدته من خسائر مادية وبشرية في أثناء الحروب شملت أوجه الحضارة والعمران في بلاد اليونان.

وثمة عوامل أسهمت في ضعف الحضارة الإغريقية وانهيارها لعل من أهمها:

أ. العوامل السياسية

تتمثل هذه العوامل في ما يأتي[١]:

١. الحروب مع الفرس: كان أول صدام فعلي حين أرسل الإمبراطور الفارسي عام (٤٩٠ ق.م) حملة كبيرة عبرت المضائق لتأديب أثينا، إلا أن أثينا انتصرت في موقعة (مراثون) وهزمت جموع الفرس بالرغم من تفوقهم في العدد والعدة. وفي عام (٤٨٠ ق.م) خاض الفرس جولة من أربعة حروب برية وبحرية مدة سنتين مع أثينا على النحو الآتي:

- معركة ترموبيلاي: وقعت في عام (٤٨٠ ق.م)، على الساحل الشرقي لبلاد اليونان، وفيها انتصر الفرس، وقضوا على قوة إسبرطة بقيادة ليونيداس وأبادوها.
- معركة سلاميس: وقعت في عام (٤٨٠ ق.م)، قرب الشاطئ الشرقي للجزيرة التي تحمل هذا الاسم، وانتصر فيها الأسطول الأثيني على الأسطول الفارسي.
- معركة بلاتيه: وقعت في عام (٤٧٩ ق.م)، قرب حدود أتيكا، وفيها تحول اليونانيون من الدفاع إلى الهجوم بقيادة إسبرطة، وانتصروا على القوات الفارسية.

---

(١) باقر: **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، (ص٥٩١-٦٠٢)؛ دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**،(ج٢-ص٨٨،ص٣٨١-٣٨٧)؛ طقوش: **الحضارة اليونانية (الإغريقية) - موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٥١٤-٥١٩).

- معركة ميكالي: وقعت في عام (٤٧٩ ق.م)، عند شواطئ جزيرة ساموس، وانتصر فيها اليونانيون كذلك.

وبانتصار اليونانيين في المعركتين الأخيرتين فقد ابتعد الخطر الفارسي عن بلاد اليونان الأوروبية.

٢. الحروب الداخلية (حروب البيلوبونيز): بعد هزيمة الفرس سعت أثينا للسيطرة على المدن اليونانية المتناثرة على شواطئ آسيا التي كانت خاضعة للسيطرة الفارسية، وقد انتزعت مدينة (سيستوس) من الفرس، وكونت حلف ديلوس (الاتحاد الأثيني البحري الثاني) في شتاء عام (٤٧٨-٤٧٧ ق.م) لضم المدن اليونانية الآسيوية، ودارت معارك كان من أهمها معركة (نهر يوريميدون) في بامفيليا عام (٤٦٨ ق.م) التي حرر على أثرها الجزء الجنوبي من المدن اليونانية وانضمت إلى حلف ديلوس. وقد مرت حروب البيلوبونيز في مراحل ثلاث:

- **المرحلة الأولى**: بدأت عام (٤٣١ ق.م) وكان مسرحها بلاد اليونان، واستمرت عشر سنوات اجتاحت إسبرطة خلالها أراضي أتيكا، ورد الأسطول الأثيني بغارات تدميرية ضد السواحل البيلوبونيزية للضغط عليها اقتصاديًّا. ولم تحقق هذه الحرب أهداف أي من الطرفين، بل استنزفت قواهما ومواردهما، ما دفعهما إلى عقد صلح نكياس[1] عام (٤٢١ ق.م). الذي أنهى الحرب وتعهدت أثينا فيه بوقف القتال

(١) نكياس: ثري أثيني استطاع التوفيق بين أثينا وإسبرطة وعقد معاهدة سلام بينهما في عام (٤٢١ ق.م)، ونصت على أن يحتفظ كل من المتحاربين على الأراضي التي يحتلونها وقت توقيع الاتفاقية مع بعض الاستثناءات، وأن يتبادل الطرفان الأسرى. وقد وقعت أثينا وإسبرطة على إثر ذلك على معاهدة دفاع مشترك مدتها خمسين عامًا. انظر: ديورانت: **قصة الحضارة**: حياة اليونان، (مج٤-ج٧-ص٦٧).

لمدة خمسين عامًا، وأن تنهض لمساعدة إسبرطة إذا ما ثار عليها الهيلوتيون[١].

- **المرحلة الثانية**: نقض صلح نكياس بعد مرور ست سنوات فقط، واستؤنفت العمليات العسكرية حين قرر الأثينيون الاستيلاء على المستعمرات الدورية في صقلية، في الوقت الذي ضاقت فيه سفن حلف ديلوس ذرعًا بالتسلط الأثيني وسعت للتخلص منه. أرسلت أثينا حملة لإخضاع سيراكوزة الواقعة في جنوب شرقي جزيرة صقلية وعلى المدن اليونانية المنتشرة على الشواطئ الإيطالية، وانتهت المواجهة بتدمير القوات الأثينية البرية والبحرية عام (٤١٣ ق.م).
- **المرحلة الثالثة**: جرت أحداثها بين عامي (٤٠٦-٤٠٤ ق.م) حين استعانت إسبرطة بالإمبراطورية الفارسية، فأمدتها الأخيرة بأسطول بحري أرسلته إلى مداخل البحر الأسود لقطع طريق التجارة على أثينا وخنقها. وقد انتصرت أثينا في معركة أرجينوساي عام (٤٠٦ ق.م)، ولكنها هزمت في المعركة التالية بعد سنتين في إيجوسيوتامي، ودمر أسطولها بالكامل، واضطرت للتسليم وقبول الصلح الذي

(١) الهيلوتيون: هم الأرقاء الذين كانت توزعهم إسبرطة على السادة الإسبرطيين للعمل في فلاحة أراضيهم مقابل الحصول على حصة معينة. ومع أن هذه الطبقة كانت الطبقة المنتجة الرئيسة في المجتمع الإسبرطي، وكان أفرادها يؤلفون فرق مشاة خاصة بهم في الجيش الإسبرطي ويحملون أسلحة خفيفة، إلا أن وضعهم القانوني كان سيئًا جدًّا، لأنهم كانوا يلقون معاملة قاسية من الشبان الإسبرطيين من دون أن تكفل لهم الدولة أي حماية. وكانوا يعبّرون عن سخطهم أحيانًا بالتمرد؛ ما جعل الإسبرطيين يبتدعون نظام الشرطة السرية لمراقبة حركات التمرد وسحقها قبل حدوثها. انظر: برن، أندرو روبرت: **تاريخ اليونان**، تعريب محمد توفيق حسين، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد، ١٩٨٩م، (ص٥٨).

أملى (ليساندروس)[١] شروطه عليها، فنتج عن هذا الصلح سقوط الإمبراطورية الأثينية.

٣. بعد سقوط أثينا سيطرت إسبرطة على كافة المدن اليونانية، وسعت لإنشاء إمبراطورية مماثلة لإمبراطورية أثينا، ودب الصراع بين المدن اليونانية من أجل الصراع والسيطرة والاستقلال، خاصةً بعد رفض إسبرطة منح المدن اليونانية التي كانت خاضعة لأثينا حريتها كما وعدتها من قبل، بل فرضت عليها جزية مضاعفة وأقامت في كل منها حكمًا أرستقراطيًّا يشرف عليه حاكم لسدموني[٢] تسانده حامية عسكرية إسبرطية، مما دعا هذه المدن إلى الثورة والانفصال عن إسبرطة.

٤. دخلت إسبرطة في حرب مع طيبة انتهت بهزيمة إسبرطة هزيمة ساحقة عام (٣٧١ ق.م)، فانتقلت زعامة بلاد اليونان إلى طيبة، والتي خسرت المعارك البرية والبحرية ضد إسبرطة عام (٣٦٢ ق.م). وهكذا قضت الدول الكبرى الثلاث (أثينا، وإسبرطة، وطيبة) على بعضها بعضًا وأخفقت في تحقيق الوحدة

---

(١) ليساندروس: قائد الأسطول الإسبرطي الذي هزم أثينا هزيمة ساحقة، وفرض سيطرة إسبرطة على مداخل البحر الأسود حيث الخط التجارى الأساس الذى يمون أثينا بما تحتاجه من قمح. وقد استطاع ليساندروس تدمير الأسطول الأثينى فى موقعة إيجو سبوتامي، ولم يكن أمام أثينا إلا الاستسلام لشروط الصلح التي أملاها ليساندروس والتى كان أبرز نتائجها انفراط عقد الإمبراطورية الأثينية وفشل أول محاولة جادة كان يمكن أن توحد المدن اليونانية. انظر: إيمار، أندريه وأوبوايه، جامين: **تاريخ الحضارات القديمة**، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، دار عويدات، بيروت، ٢٠٠٣م، (ص٦٧).

(٢) لم تمنح إسبرطة المدن التي كانت من قبل خاضعة لأثينا ما وعدتها به من حرية، بل فرضت عليها بدلًا من هذا جزية سنوية مقدارها ألف وزنة (٦,٠٠٠,٠٠٠ ريال أمريكي)، وأقامت في كل منها حكمًا أرستقراطيًّا يشرف عليه حاكم لسدموني تؤيده حامية إسبارطية. ولم تكن هذه الحكومات مسؤولة إلا أمام الحكام الإسبارطيين البعيدين عنها، فأوغلت في الفساد والظلم إيغالًا لم يلبث أن أوغر الصدور على الحكومة الجديدة أكثر مما كانت موغرة على الحكومة القديمة. انظر: دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج٢-ص٣٨٤).

السياسية، ما جعلتها فريسة سهلة لمقدونيا التي استطاع ملكها (فيليب) والد الإسكندر الأكبر أن يقضي على الجيش اليوناني عام (٣٣٨ ق.م)، واعترفت به الإغريق إلا إسبرطة التي أخضعت بالقوة، وأكمل عمله ابنه الإسكندر الأكبر الذي انتخب قائدًا للإغريق جميعهم في حملته على فارس.

وهكذا يتضح أن أهم العوامل السياسية التي أسهمت في سقوط الحضارة الإغريقية:

١. الحروب الخارجية مع الفرس.
٢. حروب البيولوبونيز التي أنهكت أثينا وإسبرطة وأخيرًا طيبة، ويسرت على مقدونيا مهمة إخضاع بلاد اليونان بعد هزيمة هذه الدول.
٣. استقلال بعض الدول عن إسبرطة التي لم توف بوعدها لهذه الدول، ولم تعطها استقلالها بعد نهاية الحرب وانتصارها على أثينا.

ب. العوامل الاقتصادية والاجتماعية

بالرغم من وجود النظام الديموقراطي الحضارة الإغريقية، إلا أن طبقة العبيد كانت الطبقة المنتجة، وتحول بقية أفراد المجتمع إلى طبقات مستهلكة، حتى إنهم كانوا يتجرون بالعبيد، ويؤجرونهم حين لا يجد مالكهم عملًا يشغلهم فيه.

دار صراع ضارٍ بين مختلف شرائح المجتمع، نجم عنه عدة انقلابات كان للشرائح الجديدة الحرفية والتجارية الدور الأهم في نشوء الحركات الثورية، لكن القوة الرئيسة كانت قوة الفلاحين التي عانت الأمرين من ظلم النبلاء، حيث صار طرد شرائح كاملة من السكان ومصادرة الأرزاق وإعدام قادة الأحزاب المنهزمة أمرًا عاديًّا. وحين كان الحزب الشعبي ينتصر، ويقلب الأرستقراطية، ويكبح جماح النبلاء، ويصادر أراضيهم ويوزعها على الفقراء، ويسهم في ازدهار اقتصاد العبودية باستيراد جماهير العبيد الأجانب[١].

(١) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص٢٩٠-٢٩١).

وكذلك تحولت العلاقات الداخلية بين طبقات المجتمع اليوناني إلى صراع عضوي في سبيل الحصول على مكاسب مؤقتة وقصيرة المدى من دون الارتباط بمبدأ سياسي محدد. وتعرضت حياة العامة في المدن إلى الاهتزاز بفعل تراجع الصادرات وتناقص الموارد الاقتصادية، علمًا بأن بعض البلدان التي كانت تشكل أسواقًا خارجية لبلاد اليونان راحت تنمي منتجاتها مع السلع التي كانت تستوردها من المدن اليونانية، ما زاد من التدهور الاقتصادي ودفع بعض اليونانيين إلى العمل جنودًا مرتزقة في الفرق الفارسية بصورة خاصة، بل إن أثينا أصبحت تعتمد أحيانًا على هؤلاء الجنود[١].

تتلخص أهم العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي أسهمت في سقوط الحضارة الإغريقية في ما يأتي:

١. الصراع الطبقي بين مختلف الشرائح الاجتماعية.
٢. استغلال النخبة الحاكمة -المسيطرة أحيانًا- العبيد والفقراء، ومصادرة أراضي الأرستقراطيين وتوزيعها على الفقراء أحيانًا أخرى.
٣. ضعف تأمين طرق التجارة الخارجية التي اعتمدت عليها أثينا وإسبرطة وطيبة في تنشيط اقتصادها عن طريق حركة التجارة.
٤. تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بسبب الانشغال عن الزراعة والصناعة والتجارة بالحروب.

وبذلك يتجلى بوضوح أن العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية حصلت على نصيب الأسد من العوامل التي كانت سببًا في ازدهار الحضارات (السومرية والبابلية والإغريقية)، وكذلك كانت سببًا في سقوطها، مع التداخل الشديد في هذه العوامل، فقد تكون أسبابًا للازدهار أو أسبابًا للتدهور وغياب الاستقرار، فالثراء الذي توصلت إليه الحضارات نتيجة الرواج التجاري والتطور الصناعي وزيادة الإنتاج الزراعي وتنوعه كان يغري البلدان المجاورة للسيطرة على هذه البلاد واستنزاف خيراتها، وكان غالبًا

(١) طقوش: **الحضارة اليونانية (الإغريقية) ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٥١٩).

ما يقود للحرب، كما كانت العوامل السياسية وعدم الاستقرار السياسي والاضطرابات بسبب طغيان الطبقات الحاكمة وطبقة النبلاء تتسبب بثورات اجتماعية، وكذلك كانت الرغبة في تنشيط التجارة ترتبط بتأمين طرقها واحتلال البلدان التي تتحكم في الطرق البحرية أو الصراع المرير معها، فضلًا عن رغبات بعضهم بالوصول إلى الحكم، والتي كانت تتضمن التقاتل بين الدويلات وما يتبع ذلك التقاتل من ضعف واضمحلال أسهم إلى حد كبير في اندثار هذه الحضارات أو السيطرة عليها وغزوها خارجيًّا.

إن غالبية الحضارات السابقة اتسمت في بدايتها بالبساطة، وقامت على العصبية للحفاظ على الملك، والاعتماد على قوة الدولة في زيادة سلطانها ونفوذها وفق نظم حكم وراثية وشبه وراثية، فباستثناء شريعة حمورابي وقوانينه لم تؤثر هذه الحضارات بصورة كبيرة في التراث الحضاري، ولكنها كانت فقرات مهمة من فقرات التطور الحضاري، وشهدت صراعات سياسية مريرة، ومددًا من التقلب والانقسام التي أثرت بصورة مباشرة على المجتمعات، ورسمت طرق تشييد الحضارة، وكذلك أسباب ازدهارها، وأسباب سقوطها، حيث تلا ذلك حضارات كانت أبعد أثرًا وأعمق تأثيرًا في التاريخ الحضاري للأمم والشعوب بعدما استفادت من تجارب الحضارات السابقة، وهو ما سنتعرف إليه في الفصل التالي عند استعراض الحضارة الصينية والفرعونية والفينيقية كحضارات مؤثرة وما زالت آثارها شاخصةً حتى الآن.

الحضارة الصينية

انبعثت الحضارة الصينية على النهر الأصفر، وكان أول من سكن الصين منذ قرابة (٤٠٠ ألف سنة قبل الميلاد) إنسان بكين[١]. إلا أن بداية الحضارة الصينية كانت في عام (٢٥٠٠ ق.م) حين برزت آلاف القرى والتجمعات السكانية ضمن خمس وخمسين

(١) إنسان بكين: أحد أشهر أمثلة جنس الإنسان المنتصب. وقد جدت بقاياه خلال مدة (١٩٢٣-١٩٢٧م) خلال تنقيبات قرب بكين العاصمة الصينية. المكتشفات قدرت أنها تعود لقرابة (٤٠٠,٠٠٠-٢٥٠,٠٠٠ سنة مضت في العصر البليستوسيني. انظر: نيدهام، جوزيف: **موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين**، ترجمة محمد غريب جودة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م، (ص٩٨).

ولاية في مجتمعات تعتمد بصورة رئيسة على الرعي والزراعة في ضوء توافر نهرين هما: النهر الأصفر، واليانجستي، اللذين أسهما بصورة كبيرة في توفير الأراضي الخصبة الشاسعة الصالحة للزراعة في حضارة (يانجشاو)[١] التي كان من أبرز ولاياتها: هونان[٢]، وشانسي[٣]، وشانتونج[٤]، وكانسو[٥]، إضافة إلى تشين[٦] التي أخضعت

---

(١) ظهرت هذه الحضارة في شمال الصين، وبلغت أوج قوتها قرابة عام (٣٠٠٠ ق.م). وامتدت هذه الحضارة من الوادي الأوسط (هوانج هي) إلى الإقليم المعروف حاليًّا باسم (جانسو)، ثم حلت محلها حضارة (لونجشان) التي انتشرت في أرجاء البلاد كافة. انظر: إيمار وأبوايه: **تاريخ الحضارات القديمة**، (ص١٢٢).

(٢) مقاطعة صينية تقع شرق البلاد، وهي أكبر المقطعات من حيث تعداد السكان. تتميز بتضاريسها الجبلية في الغرب، والسهول الممتدة في الشرق، ويتركز أغلب السكان في هذه الأخيرة. انظر: توينبي، **تاريخ البشرية**، (ص١٩٩).

(٣) إقليم تابع لجمهورية الصين الشعبية، ويقع في منطقة شمال الصين. يعني حرفيًّا (غرب الجبل)، في إشارة إلى موقع الإقليم غرب جبال (تايهانغ). ويحد إقليم (شانشي) من الشرق (هيباي) و(هينان (من الجنوب و(شآانشي) من الغرب و(مونغوليا الداخلية) من الشمال ويتكون الإقليم بصورة أساسية من هضبة تحدها جزئيًّا سلاسل جبلية. وعاصمة الإقليم هي (تايوان). انظر نيدهام: **موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين**، (ص١٠٢).

(٤) مقاطعة داخلية في الصين تقع على واجهة خليج يوهاي والبحر الأصفر (بحر الصين)، تقابلها على الواجهة الأخرى شبه جزيرة (ليادونغ). وضمت منطقة (شانتونج) إلى الصين أثناء حكم سلالة شانغ (١٧٦٥-١٠٦٦ ق.م) أولى السلالات التي حكمت البلاد. وهي مسقط رأس الفلاسفة أمثال (كونفشيوس) و(مينغ تسي). وقد كان لها دور كبير في تاريخ الصين القديم. انظر: إيمار وأبوايه، **تاريخ الحضارات القديمة**، (ص١٣٥).

(٥) مقاطعة تقع في جمهورية الصين الشعبية وعاصمتها (لان جو). القومية الغالبة في هذا الإقليم هي قومية الهان. وتضم هذه المقاطعة ممر (كانسو) الذي كان تاريخيًّا أهم ممر تجاري في شمال الصين على طريق الحرير الشمالية. انظر: كولر، جون: **الفكر الشرقي القديم**، ترجمة كامل يوسف حسين، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٥م، (ص١٣٢).

(٦) أسرة من الأباطرة حكمت الصين (٢٢١-٢٠٨ ق.م) كان لها الفضل في توحيد البلاد وتأسيس أول إمبراطورية حقيقية أعطت لاحقًا اسمها للبلاد. انظر: ديورانت، **قصة الحضارة**، (ج٤-ص١٣٥).

لسلطتها سائر الولايات الصينية، وأسست إمبراطورية موحدة أعطت للصين اسمها بقيادة الحاكم هوان[١]، ومستشاره ووزيره الأول جون جونج الذي تميز عصره بوضع حكومة مستقرة قامت على نظام إداري محكم رافقته حركة ثقافية وحضارية باهرة[٢].

بلغت حضارة يانجشاو أوجها قرابة عام (٣٠٠٠ ق.م). وامتدت هذه الحضارة من الوادي الأوسط هوانج هي إلى الإقليم المعروف حاليًّا باسم جانسو، ثم حلت محلها حضارة لونجشان التي انتشرت في أرجاء البلاد كافة.

سنن قيام الحضارة الصينية وعوامل ازدهارها والشواهد الدالة على قوتها

ارتكزت الحضارة الصينية -شأنها شأن غالبية الحضارات- على تكوين أنظمة حكم قادرة على تنفيذ إستراتيجية واحدة لتحقيق التطور في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

أ. العوامل السياسية

بدأت النشأة الفعلية لهذه الحضارة بعد توحيد الصين سياسيًّا عام (٢٢٢ ق.م) على يد شي هوانج-تي[٣]. وقد تعاقبت الأسر على حكم الصين، بدءًا من حكم أسرة

---

(١) يعد (هوان) أحد أقوى حكام تشين، حيث قام ووزيره الأول (جون جونج) بعدة إصلاحات ومشروعات طورت البلاد بدرجة كبيرة، كما ضم إلى ملكه العديد من االمقاطعات المجاورة، وأسس أقوى إمبراطورية صينية خلال المدة من (٢١٥-٢٠٨ ق.م). انظر: إيمار وأبوايه، **تاريخ الحضارات القديمة**، (ص١٢٥).

(٢) السحمراني، أحمد: **الحضارة الصينية _ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، دار النفائس، بيروت، ٢٠١١م، (ص٢٦٤).

(٣) كان ملكًا للمملكة الصينية (تشين) خلال المدة (٢٥٩-٢٠١ ق.م). وحد ولايات الصين المتصارعة المتنافرة، وأدخل عليها إصلاحات هائلة اكتسحت الفساد والانحلال والتفكك. وكانت هذه الإصلاحات من الأسس التي أبقت على الصين وعلى تراثها الحضاري ووحدتها الجغرافية حتى اليوم. انظر: توينبي، أرنولد: **تاريخ البشرية**، مرجع سابق، (ص١٨٩).

(شانج) التي دام حكمها من (١٦٠٠-١٠٤٦ ق.م)، ثم انتقلت مقاليد الحكم إلى أسرة (جوو) التي استمر حكمها من (١٠٢٧-٢٥٦ ق.م)، ولم تكن هذه العائلة تملك قدرات حضارية مثل أسرة (شانج)، لكنها استفادت من النظم القائمة ومن العلوم والصناعات الموجودة، بيد أنه في بداية القرن الثامن عشر بدأ الضعف يدب في أوصال الدولة، وشهدت الصين حالة من عدم الاستقرار لما يزيد عن خمسة قرون[١].

في عام (٧٧١ ق.م) قتل الإمبراطور (لو)، واضطر خلفه أمام الضغط العسكري للبرابرة المتحالفين مع حكام إحدى الولايات الصغيرة الذين قتلوا (لو) إلى نقل العاصمة من موقعها قرب (سيان) إلى (لويانج) جهة الشرق، وقد حفل هذا التاريخ بالنزاع واستقلال العديد من الولايات عن الدولة، حيث بلغ عدد الولايات المستقلة اثنتين وخمسين ولاية، وبالرغم من الصراع الفوضوي على السلطة الذي شهده هذا العصر، إلا أن ذلك ترافق مع ظهور المدارس الفلسفية وظهور كونفوشيوس، وانتشار مراكز العلوم التي أسهمت بصورة كبيرة في التطور الفلسفي والعلمي والاقتصادي، وأسفر هذا التطور عن ظهور ولاية (جهن) التي غزت سائر الولايات الصينية، وتوحدت الصين مجددًا عام (٢٢٢ ق.م) على يد الإمبراطور (شي هوانج تي) الذي تضمن حكمه أوج قوة الحضارة الصينية وازدهارها، وتضمن تطوير المرافق العامة والبنى التحتية، فضلًا عن بناء سور الصين العظيم لحماية الصين من الغزو الخارجي ومن غارات البدو والبرابرة، ولوقف نزوح سكان الصين نحو الشمال ومن ثمَّ تحقيق الاستقرار[٢].

بعد وفاة (شي هوانج تي) لم يتمكن وريثه من الحفاظ على الإمبراطورية التي انقض عليها القائد العسكري (ليوبانج) واستلم السلطة عام (٢٠٢ ق.م) وأطلق على نفسه

---

(١) إيمار وأوبوايه: **تاريخ الحضارات القديمة**، (ص١١٥).

(٢) السحمراني: **الحضارة الصينية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٢٦٥-٢٦٦).

(هان كاوتسو)، واستمر حكم أسرة هان أربعة قرون في المدة من (٢٠٦ ق.م-٢٢٠م)، حيث تميز فيها عصر الإمبراطور (ووتي) في أثناء المدة من (١٤٠ ق.م-٨٧ ق.م) بالرخاء والاستقرار عن طريق إدارة حكومية ناجحة، وإقامة علاقات جوار مع الخارج، فضلًا عن النهضة العلمية غير المسبوقة التي سادت في عصره[١].

وقد امتد نفوذ أسرة (هان) إلى تخوم بحر قزوين في عهد (بان جهاو) في عام (٨٠ م)، ونشطت الاتصالات مع المحيط الخارجي، وعاشت الصين حالة من الازدهار، حتى بدأت النزاعات تدب بين أهل القصر على السلطة في عام (١٨٤م)[٢].

وقد ساد مفهوم سياسي أعطى هالة للحاكم الإمبراطور لأنه رئيس طبقة النبلاء، وسلطته مستمدة من السماء وعلى الناس أن يخضعوا له، لذلك كانت السلطة تتركز في يد الحاكم، يليه وزيره الأول الذي يقاربه في الصلاحيات الممنوحة له، مع تعيين ثلاثة وزراء يختص كل منهم بميدان معين؛ كالزراعة، والحرب، والأشغال العامة. وتمثلت الوحدات الإدارية في القرى التي يتوسطها بلدة كبيرة لتشكل معًا (بينا) أو مقاطعة، وتشكل أكثر من مقاطعة (فو)، وكل ثلاثة (فو) تشكل (دو)، وحين يجتمع أكثر من (دو) فإنها تشكل إقليمًا، ويعين الحاكم موظفًا لإدارة شؤون كل (بينا)، مع الاهتمام بالجيش كوسيلة لصد أي عدوان أو هجوم على بلاد مترامية الأطراف[٣].

يتضح مما سبق أن أهم العوامل السياسية التي أسهمت في تطور الحضارة الصينية:

١. توحيد الصين على يد الإمبراطور (شي هوانج تي).
٢. الإدارة الحكومية الناجحة، وإقامة علاقات جوار مع الخارج.
٣. النهضة العلمية غير المسبوقة التي سادت في عصر الإمبراطور (هان).

---

(١) سعفان، حسن شحاتة: **كنفوشيوس**، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت، (ص١٨).
(٢) كولر: **الفكر الشرقي القديم**، (ص٣٩).
(٣) إيمار وأوبوايه: **تاريخ الحضارات القديمة**، (ص١٢٠).

ب. العوامل الاقتصادية

اعتمد المجتمع الصيني القديم على الزراعة والرعي في ضوء توافر المراعي الصالحة للماشية، وكذلك الأراضي الشاسعة الصالحة للزراعة، ووجود نهرين هما: النهر الأصفر، ونهر اليانجستي.

ففي البداية سعى الاقتصاد الصيني لتحقيق الأمن الغذائي عن طريق إيجاد الأراضي الصالحة للزراعة، وبدأ ذلك في عهد الإمبراطور (فوشي) عام (٢٨٥٢ ق.م) الذي قام اقتصاد دولته على تدجين الحيوانات، والاعتناء بدود القز لإنتاج الحرير، وصيد السمك بالشباك. وقد اهتم الإمبراطور (سن تولج) وخليفته (فوشي) بالزراعة، وشهد عهده صناعة المحراث واستخدامه، وإنشاء الأسواق وتنظيم أعمال التجارة، واستخدام الأعشاب والنباتات في العلاج الطبي. إلى جانب إنشاء القنوات المنتظمة لأعمال الري عبر نهر اليانجستي، وقد تنوع الإنتاج الزراعي من المحاصيل الزراعية والخضروات والحبوب والأشجار المثمرة كافة[١].

وقد وضع الصينيون تقويمًا زراعيًّا لمراقبة الأفلاك بهدف تحديد الدورة الزراعية، ووضع علماء الصين مبادرة الاعتداليين (أي تبديل نقطة اعتدال الربيع حسب دائرة البروج)، وفي عهد أسرة (سين) وضع أول تقويم شمسي في العالم، ولكنه لم يستخدم لأن الصينيين كانوا يستخدمون التقويم القمري[٢].

وفي عهد أسرة (تشاو) التي حكمت بعد العام (١٠٠٠ ق.م) مدة ثلاثة قرون، تطورت الصناعة، وزاد إنتاج الحرير والخزف والجلد والعاج والخيزران والخشب، حيث أصبحت الصين هي درب الحرير، وأطلق اسم الصين على الصحون الخزفية التي اشتهرت حتى يومنا هذا بالصحون الصينية، كما تطورت صناعة الآلة من آلات الفلاحة إلى آلات الحرب،

---

(١) السحمراني: **الحضارة الصينية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٢٧٥).

(٢) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص٢٤٢).

كالحراب، والتروس، والأقواس، والسهام، فضلًا عن صناعة الآلات الموسيقية المختلفة، وكذلك صناعة الورق التي ما تزال الصين المصدر الأول له حتى يومنا هذا[١].

وكان ظهور النقد المعدني إيذانًا بنهاية تبادل المحاصيل والحبوب وسائر المنتجات بمثلها أو بما يعادلها قيمة، وتلا ذلك صك النقود المعدنية في بداية القرن الخامس قبل الميلاد، أما النقود الورقية فلم تُتداول إلا في عام (٩٧٠م). وقد انطلقت التجارة الخارجية من أوسع أبوابها في عهد أسرة (هان) بعد عام (٢٠٦ ق.م) عن طريق تأسيس الصين علاقات تجارية مع الدول المجاورة باتجاه بحر قزوين والفرس والعرب والروم[٢].

وهكذا يتضح أن أهم العوامل الاقتصادية التي أسهمت في تطور الحضارة الصينية:

١. الاهتمام بالإنتاج الزراعي وتنوع المحاصيل ووفرتها.
٢. تدجين الحيوانات، والاعتناء بدود القز لإنتاج الحرير، وصيد السمك بالشباك.
٣. صناعة الآلات الزراعية واستخدامها.
٤. ارتفاع إنتاجية الأراضي الواقعة في نطاق النهرين: الأصفر، واليانجستي.
٥. إنشاء الأسواق وتنظيم أعمال التجارة.
٦. انتشار الصناعات الأساسية وتطورها، مثل الحرير، والخزف، والجلد، والعاج، والخيزران، والخشب.
٧. تأسيس الصين علاقات تجارية مع الدول المجاورة باتجاه بحر قزوين والفرس والعرب والروم، ما ترتب عليه اتساع نطاق التجارة البرية والبحرية، ورواج عمليات التصدير والاستيراد، سواء من خلال الطرق البرية الممهدة، أو من خلال الطرق البحرية باستخدام السفن الصينية الضخمة.

---

(١) إيمار وأوبوايه: **تاريخ الحضارات القديمة**، (ص١١٧).

(٢) نيدهام: **موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين**، (ص١٢).

ج. العوامل الاجتماعية

ظهرت الطبقات المتعددة في المجتمع الصيني، وكان أشدها تأثيرًا الطبقات الفقيرة من الفلاحين والمزارعين الذين أسهموا بجهودهم في ازدهار الحضارة الصينية.

عاشت الصين موزعة في ولايات وإقطاعات زراعية ضخمة تحت حكم أسر من النبلاء والإقطاعيين تتحكم في مجموعة من الفقراء من الفلاحين والعاملين في الإنتاج الزراعي والصناعي. وكان فقراء الصين يكتفون بزوجة واحدة، بخلاف الأغنياء الذين يعددون الزوجات أو السراري[١].

هذا يعني أن المجتمع الصيني تكون من طبقتين، هما: «طبقة النبلاء وطبقة الفلاحين، فطبقة النبلاء التي امتلكت كل شيء، وتمتعت بحقوق تعدد الزوجات والسراري وغيرها من الحقوق، أما طبقة الفلاحين فكانت تعمل في خدمة النبلاء، ويقيمون في الأرض الزراعية الخاصة بهم، وكان إنتاج هذه الأراضي المملوكة للنبلاء تدر على الفلاحين ما يكفيهم، وما يكفي سادتهم المقاتلين من النبلاء قبل أن يفرض التجنيد الإجباري على الفلاحين، بعدما استعرت شدة الحروب بين المدن الصينية ووجد النبلاء ضرورة تجنيد الفلاحين واستغلالهم في القتال، وبذلك تبدلت المنافسة العسكرية ما بين النبلاء لتضم الفلاحين والأجراء لدى كل نبيل»[٢].

اعتمدت العوامل الاجتماعية بصورة كبيرة على المجتمعات الزراعية التي قامت في الأيام البدائية بامتصاص أقوياء الذراع دماء ضعفائهم، أو باندماج المجتمعات تحت رئاسة زعيم واحد لكي يستطيعوا الدفاع عن حقولهم ضد من يغيرون عليهم من الهمج المحيطين بهم[٣].

---

(١) السحمراني: **الحضارة الصينية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٢٨٠).

(٢) توينبي: **تاريخ البشرية**، (ص١٩٠).

(٣) ديورانت، ول: **قصة الحضارة: الهند وجيرانها ـ الشرق الأقصى (الصين)**، ترجمة زكي نجيب محمود ومحمد بدران، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠١م، (مج٢-ج٤-ص١٩).

وهكذا يمكن إجمال أهم العوامل الاجتماعية التي أسهمت في تطور الحضارة الصينية في ما يأتي:

١. امتلاك النبلاء والأمراء أراضي زراعية شاسعة لاستغلالها في الزراعة.
٢. استغلال الفقراء في الزراعة والصناعة وغيرها مقابل قوتهم الضروري.
٣. حسن إدارة الأملاك الزراعية الشاسعة.
٤. تعدد الزوجات الذي أسهم في إنجاب الأبناء اللازمين للدفاع عن الأرض وحماية الصين المترامية الأطراف.

د. الشواهد الدالة على قوة الحضارة الصينية

في مقدمتة هذه الشواهد المصنوعات الصينية من الحرير والفخار التي حملت طابعهم المميز بالرسوم، حتى اشتهرت الصين إلى يومنا هذا بأنها درب الحرير الطبيعي، بل أطلق اسم الأواني الخزفية (الأطباق الصينية) نسبة إلى الصين، إضافة إلى صناعة الورق والحبر التي كان للصين الفضل في انتشارها في العالم أجمع[١].

تضمنت النقوش الصينية التي ما تزال في المعابد الصينية القديمة، والموجودة حتى يومنا هذا، مشاهد عديدة توضح بعض فلاسفة الصين وحكمائها الذين عُدُّوا آلهة، إلا أن (كونفشيوس) يعد الفيلسوف الأبرز في الصين فقد انطلقت فلسفته في عصر أسرة (هان) وأثرت بصورة كبيرة في المجتمع الصيني، حيث ركز (كونفوشيوس) على تنمية المجتمع الصيني عن طريق الطابع الإنساني الذي أراد أن يثبت به أن للحياة معنى، وأن السعادة تكون بالعيش في مناخ الفضيلة واحترام القيم والاعتراف بالآخر[٢].

---

(١) إيمار وبوايه: **تاريخ الحضارات القديمة**، (ص١١٧).

(٢) سعفان: **كنفوشيوس**، (ص١٩).

إذًا، تتلخص أهم الشواهد التي تشير إلى قوة الحضارة الصينية وازدهارها في ما يأتي[١]:

١. الحركة العلمية والفلسفية التي وضعت أساس النهضة الصناعية والتقنية.
٢. محافظة اللغة الصينية على أسلوب الكتابة الرمزية التي تتكون على أساس من الأشكال أو من النغمات والأصوات ورفضها التحول إلى نظام أبجدي مباشر.
٣. سبقهم الشعوب الأخرى في التدوين مع الحرص على الحياد والموضوعية والدقة، وذلك عن طريق تحديد اليوم والشهر والسنة لكل واقعة تاريخية حدثت.
٤. الاهتمام الكبير بالفلسفة وتأثيرها في الأدب الصيني.
٥. الاهتمام بالطب والعلاج بالأعشاب والعلاج بالإبر الصينية التي ما زالت تشتهر به الصين حتى يومنا هذا.
٦. تطور علم الفلك وإصلاح أنظمة التقاويم.
٧. إرساء أسس علمية في تصنيف الحيوانات والنباتات.
٨. وضع أول كتاب في الكيمياء عام (١٤٢م).
٩. اختراع الورق وشيوع استخدامه في التدوين والكتابات وتسجيل الأحداث المهمة.
١٠. تطور مناهج التفكير وبروز منهج الشك المنهجي[٢].
١١. عمل نظام حكم وإدارة متطور تتحدر فيه السلطات في شكل هرمي مع الاعتماد على المركزية واللامركزية، وذلك عن طريق تعيين موظف حكومي لإدارة شؤون كل مقاطعة.

---

(١) السحمراني: **الحضارة الصينية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٢٧٧-٢٨٢).

(٢) حركة فلسفية في اليونان القديمة تدعو إلى الشك في ما لا يتحققه الإنسان بالتجربة. انظر: ديورانت: **قصة الحضارة: الهند وجيرانها ـ الشرق الأقصى (الصين)**، مرجع سابق، (مج٢-ج٤-ص٦٤).

obeikan.com

سنن سقوط الحضارة الصينية والعوامل التي ساعدت على انهيارها

سارت الحضارة الصينية على المنوال نفسه الذي سارت عليه غالبية الحضارات، حيث أسهمت الصراعات السياسية على الحكم والحروب التي ترتبت عليها في إضعاف الحضارة الصينية وتدمير اقتصادها، وفتح المجال أمام الطبقات الفقيرة أو المهمشة للمطالبة بحقوقها، ما يفتح جبهة أخرى من الصراع الاجتماعي الذي ينذر بخطر داهم إذا تحول إلى ثورة للجياع، وهذه الظروف والعوامل تزيد من الفقر والبؤس والأزمات، وتؤدي في النهاية إلى سقوط الحضارة.

وهناك عدة عوامل أسهمت في ضعف الحضارة الصينية وانهيارها، تتلخص في ما يأتي:

أ. العوامل السياسية

منذ عهد أسرة تشو التي وزعت السلطة على قرابة تسعين أميرًا، نمت رغبة كل منهم في الانفراد بالسلطة لكي يحصل على لقب إمبراطور، وترتب على ذلك حركات انفصالية لبعض الولايات، وإعلان بعضهم نفسه أميرًا على المنطقة التي يسيطر عليها ويكثر بها أتباعه، حتى وصل عدد الأمراء الذين تنافسوا على السلطة أكثر من ثلاث مئة أمير، وقامت بينهم حروب مدمرة كبدتهم خسائر مادية وبشرية فادحة، ودمرت التجارة والزراعة والاقتصاد بصفة عامة نتيجة الانشغال بالحروب والنزاع على السلطة[١].

ويمكن توضيح تأثير العوامل السياسية في انهيار الحضارة الصينية بالمظاهر الآتية[٢]:

---

(١) توينبي: **تاريخ البشرية**، (ص١٨٩).

(٢) إيمار وأوبوايه: **تاريخ الحضارات القديمة**، (ص١١٨-١١٩).

١. اشتعال الصراع مرة أخرى بين أهل القصر على السلطة في عهد أسرة (هان) منذ عام (١٨٤م) حتى عام (٢٢٠م)، وما ترتب على ذلك من انقسام الصين إلى ثلاث ولايات وممالك هي: (وي) و(وو)، و(شو)، واستمر هذا الانقسام مدة ستين عامًا، ثم تحول إلى انقسام ثنائي لتتكون الصين من مملكتين هما: المملكة الشمالية، والمملكة الجنوبية، واستمر هذا الانقسام مدة مئتين وسبعين عامًا.

٢. الانعزال والانغلاق الذي فرضته الصين على نفسها، والذي قلل من التفاعل السياسي مع المحيط الخارجي، وأثر على علاقات الصين الدولية، فبالرغم من التطور الاقتصادي والنجاحات الاقتصادية الباهرة الذي حققتها الصين، إلا أن الدور السياسي لها ما يزال غير موازٍ لقدراتها الحضارية المعاصرة.

٣. اعتماد هيكلية إدارية هرمية ترتكز على المركزية الشديدة، وتبدأ من إدارة القرية وصولًا إلى الإمبراطور في قمة الهرم، حيث أسهمت هذه المركزية في نمو الرغبة في انفصال كل إقليم تحت حكم من يرأسه وكانت سببًا في الصراعات والحروب.

إذًا، أسهمت في سقوط الحضارة الصينية العوامل السياسية الآتية:

١. النزاع على الحكم سواء بين الولايات المتجاورة أو بين الأسر الحاكمة.

٢. تقسيم الصين إلى ثلاث ولايات، ثم ولايتين بعد معاناة من حروب طويلة أسهمت في إضعاف هذه الولايات جميعها، وحدت من قدرتها على التقدم والتطور نتيجة تركيز الجهود على الصراعات السياسية والعسكرية.

٣. انغلاق الصين على نفسها وضعف تفاعلها السياسي مع دول الجوار.

٤. تدهور الأحوال الاقتصادية والمعيشية بسبب كثرة الحروب.

obeikan.com

ب. العوامل الاقتصادية والاجتماعية

تسبب في تدهور الحضارة الصينية واندثارها الصراع الذي دار بين الإقطاعيين، والذي انتهى بتجنيد الفقراء والفلاحين للمشاركة في المجهود الحربي، ما أثار حفيظة الفقراء والفلاحين، وجعلهم يطالبون بحقوق النبلاء والإقطاعيين نفسها.

سعى النبلاء إلى زيادة سيطرتهم على أكبر قدر من الأراضي والثروات، واستمرت الحروب التي كانت الدول الظافرة تضم خلالها أراضي الدول المقهورة إليها، ما أدى إلى نقص عدد الدول الصينية من ثلاث مئة دولة إلى عشرين دولة فقط، وكان المنتصرون يستعبدون العاملين في مزارع المقهورين، وكان النبلاء يقاتلون في مركبات على عكس الفلاحين والفقراء الذين جندوهم في القتال وكانوا يقاتلون راجلين، ومن ثمَّ بدؤوا يطالبون بحقوق مثل النبلاء، ولذلك أهمل العمل في الأراضي الزراعية والأنشطة الصناعية والتجارية، واهتمت الغالبية بالاستعداد للقتال والاستيلاء على مغانم الحروب مع الدول المجاورة وضمها، ما ترتب عليه ارتفاع الأسعار ونقص المواد الغذائية، وتدهور الأحوال الاقتصادية[١].

كما كانت الشرائع الصينية تحابي النبلاء، وتعفيهم من واجبات كثيرة مفروضة على الفقراء والأجراء والفلاحين، بشرط أن يؤدبوا أنفسهم إذا أخطؤوا، فقد كان يسمح للقاتل من النبلاء بأن ينتحر بقتل نفسه، وذلك أثار حفيظة عامة الشعب؛ لأن في مقدورهم أن يؤدبوا أنفسهم أيضًا، ما زاد حدة الصراع الاجتماعي بين طبقة النبلاء والفقراء[٢].

---

(١) توينبي: **تاريخ البشرية**، (ص١٩٠).

(٢) ديورانت: **قصة الحضارة: الهند وجيرانها ـ الشرق الأقصى (الصين)**، (مج٢-ج٤-ص٢٠).

ولتوضح تأثير العوامل الاجتماعية والاقتصادية في انهيار الحضارة الصينية سجلت المظاهر الآتية[١]:

١. ضعف التواصل الاجتماعي بين الصين والشعوب المجاورة، ما منح الفرصة لأعداء الصين للانقضاض على أطرافها ومهاجمتها باستمرار.

٢. الاعتماد المطلق على المجتمع الذكوري، وتهميش دور المرأة، وبذلك فقدت الصين نصف طاقتها الإنتاجية.

٣. التفرقة بين الطبقات، ومنح النبلاء والإقطاعيين والوزراء والمسؤولين الحكوميين حق تعدد الزوجات وإعفائهم من الواجبات، وحظر ذلك على الفلاحين والفقراء.

٤. الصراع الطبقي والحراك الاجتماعي بعد استخدام الفقراء والفلاحين في الحروب بين الدول المتجاورة.

٥. ضعف التبادل التجاري وإهمال شؤون الزراعة والصناعة والانصراف عنها في الحروب للحصول على المغانم أو حماية الممتلكات.

٦. سيادة نظام الحكم الإقطاعي وتركيز السلطة في يد ملاك الأرض الزراعيين الذين انتقلت إليهم السلطة بالوراثة.

٧. سيادة التقاليد والأعراف الاجتماعية التي كانت تعوق تنفيذ الأنظمة والقوانين.

٨. ضعف تأثير الدين على الحياة الاجتماعية في الصين، ما أسهم في تأثير الفلسفة الكونفوشوسية في تنظيم حياة المجتمع وأخلاقه منذ ولادته حتى نهايته.

---

(١) السحمراني: **الحضارة الصينية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٢٨٠-٢٨٢).

obeikan.com

وهكذا يتضح أن أهم العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي أسهمت في سقوط الحضارة الصينية:

١. الانغلاق الذي أسهم في حرمان الصين موارد اقتصادية توازي ما وصلت إليه من تطور.

٢. الصراع الطبقي الناتج عن محاباة الأنظمة والقوانين للنبلاء والمسؤولين والحكام، ما ترتب عليه ثورة الفقراء ومطالبتهم بمساواتهم في الحقوق والواجبات مع النبلاء.

٣. تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بسبب الانشغال عن الزراعة والصناعة والتجارة بالحروب الداخلية والخلافات بين أفراد الأسرة الحاكمة وتقسيم الصين إلى ولايات.

يتضح مما سبق أن الحضارة الصينية قامت أيضًا على فكرة العصبة والقوة للدول الحاكمة، شأنها شأن الحضارات السابقة، ولكنها أيضًا تعبر عن تطور الحضارات ونموها في مدة ازدهرت فيها الصناعة والفنون، وثبت أن الاقتصاد هو عماد قيام الحضارة، وهو ما ثبت فعليًّا خلال الحضارة الفرعونية القديمة التي قامت على ضفاف النيل والتي تعد حلقة من حلقات التطور الحضاري.

الحضارة الفرعونية

نشأت الحضارة الفرعونية في الرقعة الممتدة من سواحل البحر المتوسط شمالًا وحتى مدينة أسوان جنوبًا، ومن شبه جزيرة سيناء شرقًا إلى واحة سيوة غربًا، وفي بعض الأحيان كانت الحدود الجنوبية تمتد حتى جبل البرقل في السودان جنوبًا، خاصةً في عصر الدولة الحديثة[١].

(١) دوما، فرانسوا: **حضارة مصر الفرعونية**، ترجمة ماهر جويجاتي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨م، (ص١٨).

وقد قامت الحضارة الفرعونية على الزراعة وبصفة خاصة في وادي النيل نظرًا لقلة الأمطار، وفي مرحلة سابقة اعتمدت الحياة على الصيد والقنص وبعض الصناعات البدائية التي تطورت بسرعة لتضم صناعات التزجيج والغزل والنسيج باستخدام النول الرأسي والأفقي، واستخدام ورق البردي في صناعة الورق، إضافة إلى النشاط الاقتصادي عن طريق التبادل التجاري مع الدول المجاورة، فضلًا عن براعتهم في فن العمارة الذي أسفر عن بناء الأهرامات العملاقة كمقابر لملوك الفراعنة[١].

بدأت قصة التطور الحضاري في مصر الفرعونية منذ مدة سحيقة، منذ الألف الرابعة قبل الميلاد حين حققت القبائل المصرية تقدمًا كبيرًا في مختلف فروع الاقتصاد، حيث أدى نضوب الواحات وجفاف السيول إلى إجبارهم على حراثة الأراضي التي يرويها النيل، ولصنع الأدوات والحلي استخدموا المعادن (الذهب والنحاس)، إضافة إلى إقامة وشائج متينة مع البلدان المجاورة، وإتقان صناعة الصوف والخزف. وقد تميزت تلك المدة بانقسام المجتمع إلى عبيد وأحرار وأرستقراط، وبتفكك نظام العشيرة[٢].

وقد انهارت الحضارة الفرعونية القديمة بعد استيلاء الإسكندر المقدوني على مصر عام (٣٣٢ ق.م)، وبدأ عصر البطالمة الذين استفادوا كثيرًا من الحضارة الفرعونية، إلا أن الفراعنة الحقيقيين خلال هذه المدة قد بدؤوا في الاختفاء، وانهارت الحضارة الفرعونية[٣].

---

(١) حواس، زاهي: **معجزة الهرم الأكبر**، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٣م، (ص١٨).

(٢) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص١١٩).

(٣) رينيس، بياتريكس ميدان: **عصور ما قبل التاريخ في مصر**، ترجمة ماهر جويجاتي، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ٢٠٠١م، (ص٢٣).

سنن قيام الحضارة الفرعونية وعوامل ازدهارها والشواهد الدالة على قوتها

قامت الحضارة الفرعونية أساسًا على الزراعة، إلا أنها حملت معها بعض الخصائص والسمات التي تتميز بها من غيرها من الحضارات خاصةً بعد استخدام ورق البردي في الكتابة، وهو ما نقل كثيرًا من أعمال الفراعنة ويسر دراسة حضارتهم وما وصلوا إليه من فنون، وبصفة خاصة فن التحنيط الذي ما زال مجهولًا حتى الآن.

أ. العوامل السياسية

كان لحدود مصر الطبيعية دور بارز في حمايتها ضد العدوان، لذلك اشتق اسم مصر من الكلمة المصرية القديمة (مجر) أو (مشر) التي تعني المحصن أو المكنون، فمصر كنانة الله في أرضه، وقد انقسمت في تاريخها إلى إقليمين واضحين هما: القسم الشمالي؛ أو مصر السفلى (الوجه البحري والدلتا) ويمتد من القاهرة جنوبًا إلى شواطئ البحر المتوسط شمالًا، ومصر العليا (الوجه القبلي (الصعيد» ويمتد من القاهرة شمالًا حتى حدود مصر مع السودان جنوبًا[١].

قسم الباحثون تاريخ مصر إلى عصور رئيسة ثلاثة تتخللها مدد انتقالية وفق ما يأتي[٢]:

- العصر العتيق (بداية الأسرات): في المدة من (٣١٠٠-٢٦٨٦ ق.م)، ويتضمن الأسرتين (الأولى، والثانية).

---

(١) شورتر، آلن: **الحياة اليومية**، ترجمة نجيب ميخائيل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م، (ص٢٩).

(٢) مامو، عدنان: **الحضارة المصرية _ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، دار النفائس، بيروت، ٢٠١١م، (ص٣٨٩).

- عصر الدولة القديمة: في المدة من (٢٦٨٦-٢١٨١ ق.م)، ويتضمن الأسر (من الثالثة وحتى السادسة).
- عصر الانتقال الأول: في المدة من (٢١٨١-٢٠٥٥ ق.م)، ويتضمن الأسر (من السابعة وحتى العاشرة).
- عصر الدولة الوسطى: في المدة من (٢٠٥٥-١٧٩٥ ق.م)، ويتضمن الأسرتين (الحادية عشرة، والثانية عشرة).
- عصر الانتقال الثاني: في المدة من (١٧٩٥-١٥٥٠ ق.م)، ويتضمن الأسر (من الثالثة عشرة وحتى السابعة عشرة).
- عصر الدولة الحديثة: في المدة من (١٥٥٠-١٠٦٩ ق.م)، ويتضمن الأسر (من الثامنة عشرة وحتى العشرين).
- عصر الانتقال الثالث: في المدة من (١٠٦٩-٦٥٦ ق.م)، ويتضمن الأسر (من الحادية والعشرين وحتى الخامسة والعشرين).
- العصر الصاوي: في المدة من (٦٥٦-٥٢٥ ق.م)، ويتضمن الأسرة (السادسة والعشرين).
- العصر المتأخر: في المدة من (٥٢٥-٣٣٢ ق.م)، ويتضمن الأسر (من السابعة والعشرين وحتى الحادية والثلاثين).

وقد قام النظام السياسي بأكمله على الملك وفق نظرية الحاكم الإله، حيث عد الملك ظل الله في الأرض ويحكم بأوامره، وفي الأسرة الخامسة أضاف الملوك إلى صفاتهم لقب (ابن رع) إله الشمس الذي خلق العالم بأسره والذي يسبغ نعمه على الكون كله، ومن ثم فهو وريثه الشرعي. وفي عصر الانتقال الأول خسر الملك جانبًا من سلطاته لصالح الأمراء وكبار الموظفين، ولكن ظل هو الوسيط الوحيد بين الآلهة والبشر. كما أدت الانتصارات التي تحققت في عصر الدولة الحديثة إلى تحويل كثير من ملوك الدولة الحديثة إلى أبطال خارقين، حيث تمتع بعض الملوك بمعاملة استثنائية أدت إلى تأليههم

مـن بينهـم ملـوك الدولـة القديمـة (إله سـنفرو)[١]، وفـي الدولة الوسـطى (سنوسـرت الثالـث)[٢]، و(امنمحـات الثالـث)[٣]، وفـي الدولـة الحديثة (إلـه أمنحوتـب الأول)[٤]، و(رمسيس الثاني)[٥]، و(أمنحوتب الثالث)[٦].

---

(١) عرف باسم ساويرس باليونانية (وفقًا لمانيتون)، مؤسس الأسرة الرابعة خلال عصر الدولة القديمة. تختلف تقديرات مدة حكمه بين (٢٤ سنة و٤٨ سنة). تميز عهده بالتوسع في التجارة الخارجية، وإرسال الحملات التأديبية، وحملات التعدين. توصل مع مهندسه ومستشاره (إمحتب) إلى الشكل الكامل للهرم، حيث بنى ثلاثة أهرامات باقية إلى يومنا هذا، ويمكن زيارتها في دهشور. انظر: إدواردز، أ.س: **أهرام مصر**، ترجمة مصطفى أحمد عثمان، مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٩م، (ص٦٨).

(٢) خامس فراعنة الأسرة الثانية عشر، حكم من (١٨٧٨-١٨٣٩ ق.م)، ويعد من أعظم فراعنة الدولة الوسطى، سماه الإغريق (سيزوستريس الثال) ويعد مصدرًا لأسطورة (سيزوستريس) والاسم ينطق كذلك: سنووسرت الثالث. انظر رينيس، بياتريكس ميدان: **عصور ما قبل التاريخ في مصر**، (ص١٢٥).

(٣) سادس فراعنة الأسرة الثانية عشرة حكم من (١٨٦٠-١٨١٤ ق.م)، ويعد أعظم فراعنة الدولة الوسطى، وربما كان قد شارك في الحكم مع والده (سيزوستريس الثالث) مدة عشرين سنة قبل ارتقائه الحكم. انظر: حواس، **معجزة الهرم الأكبر**، (ص٦٨).

(٤) كان ابن (أحمس الأول) و ثاني فراعنة الأسرة الثامنة عشرة، وحكم من (١٥٢٥-١٥٠٤ ق.م) بعد أن طرد والده الهكسوس من مصر. انظر: تشرني، ياروسلان: **الديانة المصرية القديمة**، ترجمة أحمد قدري، المجلس الأعلى للآثار، القاهرة، ١٩٨٧م، (ص٣٤).

(٥) يشار إليه أيضًا بـ (رمسيس الأكبر)، كان الفرعون الثالث من حكام الأسرة التاسعة عشر حكم من (١٢٧٩-١٢١٣ ق.م). وينظر إليه على أنه الفرعون الأكثر شهرة والأقوى طوال عهد الإمبراطورية المصرية، سماه خلفاؤه والحكام اللاحقون له بالجد الأعظم. قاد (رمسيس الثاني) عدة حملات عسكرية إلى بلاد الشام وأعاد السيطرة المصرية على كنعان، كما قاد كذلك حملات جنوبًا إلى النوبة. وقد أشار بعض المحدثين إلى أنه الفرعون الطاغية الذي أغرقه الله وجنوده في اليم. انظر: رينيس، **عصور ما قبل التاريخ في مصر**، (ص١٢٤).

(٦) تاسع فراعنة الأسرة الثامنة عشر، ومن أعظم حكام مصر على مر التاريخ، حكم مصر في المدة ما بين (١٣٩١-١٣٥٣ ق.م.) كان مولعًا بالصيد وبارعًا فيه، واتسم معظم حكمه بالاستقرار والرخاء. انظر: إدواردز: **أهرام مصر**، (ص١٠٢).

وقد كان الملك هو المشرع الوحيد، وكان يعهد بالأمور التنفيذية إلى عدد من المعاونين من بين رجال عائلته أو من رجال القصر. وكان الوزير ممثل الملك ويتولى الإشراف على القضاء والإدارة والزراعة والمالية، وكان أيضًا هناك موظفون كبار يتصلون مباشرةً بالملك، بجانب السلطات التنفيذية والهيئات التنفيذية كالساحات الست الكبرى التي تولت القضاء وفصلت في المظالم[١].

ويعد الملك (مينا) أول من وحد القطرين: الوجه البحري، والوجه القبلي، كما يعد الملك (أحمس) أول من حرر مصر من الغزو الخارجي بعد طرده الهكسوس، حيث استخدم بعض الأسلحة الحديثة مثل العجلات الحربية، وانضم إلى الجيش كثير من شعب طيبة[٢] وذهب هو وجيوشه إلى (أواريس) عاصمة الهكسوس وهزمهم هناك، ثم لاحقهم إلى فلسطين، وحاصرهم في حصن شاروهين، وفتت شملهم حتى استسلموا ولم يظهر الهكسوس بعدها في التاريخ، كانت هذه المعركة قرابة عام (١٥٨٠ ق.م)[٣].

---

(١) دوما: **حضارة مصر الفرعونية**، (ص٦٢).

(٢) طيبة: مدينة فرعونية قديمة بمصر العليا، وإحدى عواصم مصر القديمة إبان المملكتين الوسطى والحديثة. كانت طيبة (الأقصر اليوم) مركز عبادة (أمون رع)، واهتم أغلب فراعنة مصر -وعلى الأخص خلال الدولة الحديثة- ببناء المعابد فيها لمختلف آلهة قدماء المصريين وأهمها (آمون رع). توجد طيبة على الضفة الشرقية من النيل وبنيت عليها العاصمة والمعابد وقصور الفراعنة، وكان لها عمدة على مر العصور. كانت تعد المعابد خالدة لذلك كانت تبنى من الأحجار الثقيلة، ومنها ما كان يسمى بيت المليون سنة وبنيت أيضًا من الأحجار، أما قصور الفراعنة وبيوت السكان فكانت تبنى من الطوب اللبن، باعتبارها ليست للأبدية. لهذا لم يبق من قصور الفراعنة شيء يذكر في حين بقيت المعابد. انظر: شكري، محمد أنور: **الفن المصري القديم**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م، (ص٥٤).

(٣) هوسون، جونيفييف وفالبيل، دومينيك: **الدولة والمؤسسات في مصر**، ترجمة فؤاد دهان، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٥م، (ص٤٣).

وهكذا يتضح أن أهم العوامل السياسية التي أسهمت في تطور الحضارة الفرعونية:

١. الخضوع المطلق لسلطة الملك باعتباره ظل الله في الأرض.
٢. الانتصارات التي تحققت في عصر الدولة الحديثة والتي زادت من سلطة الملوك وهيبتهم.
٣. نشاط السلطة التنفيذية وأجهزة الحكم والقضاء التي رسخت للأمن والاستقرار.

ب. العوامل الاقتصادية

اعتمدت الحضارة الفرعونية بصورة كبيرة على تطوير وسائل الزراعة والاهتمام بالتجارة، وإنشاء المشروعات المائية اللازمة للري، بجانب جمع الضرائب وغيرها واستخدامها في المشروعات العامة وفي التعبير عما وصلت إليه حضارة مصر الفرعونية من رقي وثراء.

عاشت الحضارة الفرعونية القديمة وتطورت في كنف الزراعة لذلك يعد حسن إدارة الأراضي من المنجزات العظيمة للمصريين القدماء، وتشير الآثار إلى وجود كوادر إدارية متخصصة لأعمال الصيانة لشواطئ نهر النيل والقنوات والسواقي والإشراف المنظم على قسمة الأراضي، فضلًا عن تنظيم الدورة الزراعية[١].

وقد عرف المصريون القدماء صناعة التزجيج (الطلاء الزجاجي باستخدام زجاج يذوب عند تسخينه لدرجة معينة)، وبرعوا في صناعات الغزل والنسيج، كما استخدموا أوراق البردي في صناعة القوارب الخفيفة، والصنادل، والحبال الغليظة، وبعض قطع الأثاث، وأهم استخداماته كانت في صناعة الورق. كما برعوا في قطع الأحجار شبه الكريمة، كالعقيق، واليشب، والزمرد، واللازورد، والفيروز، فصنعوا منها العقود والتيجان. كما وجدت آثار تدل على وجود صناعات صهر النحاس واستخراج

(١) مامو: **الحضارة المصرية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٣٨٩).

الذهب من المناجم، بجانب صناعات الأثاث التي استخدم فيها التكسية والتطعيم والنقوش الزخرفية[١].

أما التجارة فلم تسك النقود في مصر قبل الأسرة الثلاثين (٣٨٠-٣٤٣ ق.م)، لذلك كانت التجارة الداخلية تتم عن طريق المقايضة العينية، بخلاف التجارة الخارجية التي كانت من الاحتكارات الملكية، حيث كان الاستيراد يخضع لإشراف الخزانة العامة، بينما كان التوزيع الداخلي يخضع لإشراف الوزير والسلطات المحلية والمعابد الكبرى، وكانت الدولة تشرف على النقل النهري، وحرص المصريون في الدولة الحديثة على تعزيز العلاقات التجارية مع بلاد اليونان وغيرها من دول البحر المتوسط[٢].

وهكذا يتضح أن أهم العوامل الاقتصادية التي أسهمت في تطور الحضارة الفرعونية:

١. ارتفاع الإنتاجية الزراعية بسبب تنظيم مشروعات الري والدورة الزراعية وحسن إدارة الأراضي الزراعية.
٢. وفرة الإنتاج الزراعي بصورة ملحوظة، ما أدى بعد ذلك إلى أن تستخدمه الدولة في تجنيد المرتزقة.
٣. تطور التجارة وازدياد التبادل التجاري بعد تأمين طرق التجارة البحرية والنهرية.
٤. ارتفاع إنتاجية الأراضي الواقعة في دلتا مصر.
٥. استغلال الفلاحين والخدم من أسرى الحروب ومن النوبيين في العمل من دون مقابل أو بأجر بخس.

---

(١) لالويت، كلير: **نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة**، مرجع سابق، (ص٢٩٣).
(٢) دوما، فرانسوا: **حضارة مصر الفرعونية**، مرجع سابق، (ص٦٥).

Obeikan.com

ج. العوامل الاجتماعية

ظهرت في المجتمع الفرعوني طبقات متعددة، كان أشدها تأثيرًا طبقة الخدم الذين أسهموا بجهودهم في ازدهار الحضارة الفرعونية، وهذه الطبقات الست[١]:

١. طبقة النبلاء التي تضم الملك وأفراد عائلته وكبار الموظفين والوزراء وقادة الجيش والشرطة.
٢. طبقة الكهنة، وهي طبقة مستقلة بأمورها تتمتع برعاية الملك وحكام الأقاليم، وقد ازداد نفوذها في الدولة الحديثة حتى وصلوا إلى سدة الحكم في الأسرة الحادية والعشرين.
٣. طبقة الكتاب، وتضم مسجلي ومدوني الأحداث والحسابات وغيرها، وكانوا يستخدمون الكتابة الهيروغليفية في تدوين الأمور جميعها.
٤. طبقة الفلاحين التي تشمل غالبية السكان في العصور الفرعونية كلها، وكان حظها من الحياة تافهًا خلال عصر الدولة الحديثة، فقد كانوا يعملون في أراضي الملك أو المعابد، وكانوا يزرعون الأرض التي يسمح لهم بالعيش فيها والاستفادة من جزء من إنتاجها فقط كأجر لهم.
٥. طبقة العمال، حيث كانت الدولة تستخدم العمال في الأعمال المتنوعة، وكانت أجورهم تدفع على صورة تعيينات يصرفها الفرعون بوساطة الوزير، وتشمل حبوبًا وأسماكًا وخضارًا وزيتًا وأقمشة.
٦. طبقة الخدم التي كانت تعمل في بيوت طبقة النبلاء ومزارعهم، وكان غالبيتهم من أسرى الحروب ومن النوبيين.

يمكن تلخيص أهم العوامل الاجتماعية التي أسهمت في تطور الحضارة الفرعونية في ما يأتي:

١. امتلاك الحكام والنبلاء أراضي الدولة جميعها وجنيهم أرباحًا ساعدت على توفير الأموال اللازمة للتطور والنماء.

---

(١) مامو: **الحضارة المصرية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٣٩٥-٣٩٦).

obeikan.com

٢. امتلاك طبقة النبلاء مشاعات ضخمة ساعدت على وفرة الإنتاج الزراعي.

٣. استغلال الفلاحين والخدم في الزراعة والصناعة وغيرها من دون مقابل.

د. الشواهد الدالة على قوة الحضارة الفرعونية

يعد العمران واهتمام الفراعنة بفن العمارة في مقدمة الشواهد الدالة على ما وصلت إليه الحضارة الفرعونية من قوة، وهو ما تجلى في بناء الأهرامات العملاقة قبورًا للفراعنة، وكذلك بناء المعابد الضخمة الفخمة؛ مثل معبد أبو سنبل المحفور في الصخر على عمق سبعة وأربعين مترًا، والمقابر المحفورة في باطن وادي الملوك بنقوشها وألوانها وممراتها، وغيرها من الآثار التي تزخر بها مصر حيث تحتوى على قرابة ثلث آثار العالم[١].

ومن أهم الشواهد التي تدل على قوة الحضارة الفرعونية وعظمتها[٢]:

١. الآثار التي خلفها المصريون القدماء؛ حيث تحتضن مصر ثلث آثار العالم

٢. الكتابات والنقوش القديمة والتي من أهمها:

- متون الأهرام التي ترجع إلى عصر الأسرة الخامسة وتتحدث عن التعاويذ، والسحر، والبعث، ورحلة الميت في العالم الآخر، وغيرها من الموضوعات.
- حجر باليرمو: قطعة من حجر الديوريت الأسود موجودة في باليرمو في جزيرة صقلية، ومنقوش عليها حوليات عدد من الحكام والملوك المصريين، ويعود تاريخه إلى (٢٥٠٠ ق.م).
- نقش معبد الكرنك: نقش في عهد (تحتمس الثالث) (١٤٩٠-١٤٣٨ ق.م)، نقل إلى متحف اللوفر بباريس، ويحتوي على قائمة تتضمن واحدًا وستين

---

(١) حواس: **معجزة الهرم الأكبر**، (ص٥).

(٢) مامو: **الحضارة المصرية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٣٨٧-٣٨٨).

ملكًا من أسلاف (تحتمس الثالث)، وعلى غراره توجد قائمة (أبيدوس) من عهد (رمسيس الثاني).

- بردية تورية مكتوبة على ورق البردي بالخط الهيروغليفي تعود إلى عهد (رعمسيس الثاني)، وتتألف من خمسين قطعة جُمّعت في قائمة واحدة تحوي معطيات سياسية وإدارية قيمة.
- رسائل تل العمارنة: عثر على ثلاث مئة وسبع وسبعين رسالة مكتوبة باللغة البابلية وبالخط المسماري، وهي رسائل تبادلها ملوك ميتاني وبابل وقبرص مع ملوك مصر.

٣. كتابات المؤرخين القدماء ومنهم:

- مانتيون السمنودي الذي ألف كتبًا بعنوان **إيجبتيكا** باللغة اليونانية، وقدمه إلى الملك بطليموس الثاني.
- هيكاتيوس الميتليني: وضع كتابًا أسماه **تخطيط الأرض** تحدث فيه عن نهر النيل والدلتا والفيضان والزراعة في مصر.
- هيردوت: زار مصر وتجول فيها، وخصص الجزء الثاني من كتابه التواريخ للحديث عن مصر.
- هيكاتيوس الإيدري: زار مصر ووضع كتابًا يوضح عقائدها وأساطيرها الدينية.
- ديودر الصقلي: زار مصر وخصص الجزء الأول من كتابه **التاريخ العام** للحديث عن العمران والزراعة والحيوان في مصر.
- بلوتارخ: ألف كتابًا عن أسطورة إيزيس وأوزوريس.

سنن سقوط الحضارة الفرعونية والعوامل التي ساعدت على انهيارها

بالرغم من ازدهار الحضارة الفرعونية وتنوع مصادرها وفنونها وآثارها التي حفظها التدوين من الضياع، إلا أن الصراع على الحكم والاضطرابات الداخلية ضد

طغيان النبلاء وطبقة الحكام من قبل الفلاحين والخدم والبسطاء أسهمت في إضعاف الحضارة الفرعونية التي رفض الخدم والفلاحون الانضمام إلى الجيش أو العمل فيه سخرة، وَفَرّوا واختفوا، فقامت الدولة باستئجار المرتزقة الذين كبدت نفقات استخدامهم الدولة مبالغ طائلة ولم يحققوا الانتصارات المرغوبة، بل أدى الاستعانة بهم إلى اشتعال الصراعات التي أدت إلى تفكك الحضارة المصرية وضعفها وزوالها.

وهناك عدة عوامل أسهمت في ضعف الحضارة الفرعونية وانهيارها لعل من أهمها:

أ. العوامل السياسية

كان للعوامل السياسة تأثير واضح في انهيار الحضارة الفرعونية، بداية من الصراع المستمر لتوحيد البلاد أو لطرد المحتلين أو للقضاء على الثورات والاضطرابات الداخلية والتي تمثلت في ما يأتي[١]:

- الصراع بين الشمال والجنوب وانتصار (نارمير) ملك مصر العليا (جنوب مصر) على ملك مصر السفلى (جنوب مصر)، وأسر ستة آلاف مقاتل، مع إبادة تمرد في شمال مصر إبان حكم الأسرة الأولى، وكذلك إبادة عصيان مدني في عهد الأسرة الثانية كلف خمسين ألف قتيل.
- الغضب الشعبي العارم والاضطرابات الشعبية الناتجة عن إساءة استغلال موارد البلاد ووضعها في أيدي النبلاء وكهنة المعابد، ما كلف بحملات إبادة واسعة للفقراء بمؤازرة سرايا المحاربين التابعين للملك.
- انتشار الفقر بسبب الحروب والصراعات الداخلية المستمرة.
- عمل بعض المقاطعات بمبدأ الحكم الذاتي، وكانوا يتبعون الملك في حروبه وغزواته ولكن كملوك مستقلين.

---

(١) دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص١٢١-١٥٤).

- التعرض لخطر الهجمات السامية من الشرق وخطر غزو الإثيوبيين من الجنوب، ونشبت الحروب التي انتهت في عصر سنوسرت الثالث الذي أخضع القبائل الإثيوبية على طول ثلاث مئة كيلومتر من مجرى النيل.
- نشوب الاضطرابات بعد موت (أمنمحات الثالث) آخر ملك قوي من الأسرة الثانية عشرة، فعاشت البلاد مدة من التمرد والحروب الداخلية استمرت ثمانين عامًا.
- قيام الفلاحين والعبيد والحرفيين بانتفاضة وثورة شعبية عنيفة، تمكنوا خلالها من القبض على الملك وسجنه، وطرد الأغنياء من قصورهم، ورموا مومياوات الفراعنة خارج القبور، واحتلوا المعابد، ودمروا المكاتب الدينية، واحتلوا المخازن الملكية، وأعلنوا القمح المخزون ملكية عامة، واحتل العصاة مساكن الأثرياء، وارتدوا ثياب السادة وتزينوا بحليهم وألزموهم أن يعملوا لمصلحتهم، ولكن لم تذكر المصادر السلطة التي حلت محل الفرعون المخلوع.
- استغلال الهكسوس (القبائل الرحل الآسيوية) ضعف مصر وتصدعها، واحتللهما في عام (١٧١٠ ق.م) شمال وادي النيل، فأعلنوا أفاريس[١] عاصمة لهم في دلتا مصر، وفرضوا ضرائب باهظة على المصريين وجعلوا الفلاحين عبيدًا لديهم، بينما أظهروا التسامح مع الأرستقراطيين وأخضعوهم بمراقبتهم لهم، واستمر حكم الهكسوس أكثر من مئة عام قاموا خلالها بسلب المعابد وتدمير بعضها، حتى تمكن (أحمس الأول) ملك طيبة من هزيمة الهكسوس وطردهم من مصر في عام (١٥٦٠ ق.م)، وبهذا الملك بدأ حكم الأسرة الثامنة عشرة.

---

(١) مدينة مصرية قديمة بناها الكنعانيون التجار، كانت العاصمة القديمة حتى احتلال الهكسوس لمصر. وقد بنيت المدينة على خراب إحدى مدن الدولة الوسطى، وبعد سيطرة الهكسوس على المنطقة قاموا بتحصين المدينة واتخاذها عاصمة لهم. انظر: رينيس، **عصور ما قبل التاريخ في مصر**، (ص١٢٥).

- تتابع انتفاضات قادش[١] ضد إخضاعها من قبل (تحتمس الثالث).
- اشتعال النزاعات بين (إخناتون) والنبلاء، وما ترتب عليها من تصدع الدولة، خاصةً بعد موت (إخناتون)، حيث نشبت الاضطرابات في أنحاء البلاد جميعها، وبدأ الملوك الصغار في الانفصال عن مصر. واضطر (توت عنخ آمون) إلى مصالحة الكهنة لوقف الاضطرابات التي أشعلوها، ولكن بعد موته اشتعلت الاضطرابات من جديد بصورة رهيبة.
- بعد موت (رمسيس الثاني) عمت الاضطرابات الداخلية مرة أخرى وأخذت سلطة الفرعون في التصدع، بينما اتسعت سلطة الكاهن الأكبر.
- أدى تصدع السلطة المركزية والاستقلال المتنامي لأرستقراطيات النومات وبعض رفاق الكهنة إلى تشتت مصري جديد بعد أن أنهكتها الحروب الداخلية والخارجية الطويلة.
- صار (حيريهو) كبير كهنة (آمون) في القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد فرعون الأسرة الواحد والعشرين، لكنه لم يحكم مصر كلها، فقد كان لنومات الشمال (الدويلات الصغيرة في الشمال) ملوكها المحليون، ووحدت مصر بعد عدة حروب داخلية معهم بقيادة أجنبي هو الجنرال الليبي (شيشانك الأول)، تجددت في عهد خلفائه الصراعات وتجزأت مصر إلى عدة دول مستقلة.
- في عام (٣٣٢ ق.م) سقطت مصر في يدي الإسكندر المقدوني.

ب. العوامل الاقتصادية والاجتماعية

أثر تصدع البلاد وتعرضها لحروب واضطرابات داخلية وخارجية مستمرة في الري، حيث أهملت المنشآت وركدت المياه مكونةً مستنقعات، ونشبت النزاعات بين

---

(١) قادش: مدينة سورية وقت فيها معركة بين المصريين القدماء والحيثيين، وانتصر فيها المصريون القدماء وأخضعوا قادش لسيطرتهم. انظر: دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج٢-ص١١٢).

النومات بسبب الرغبة في الحصول على حصة أكبر من مياه الري، إضافة إلى الصراع الطبقي الحاد الذي ثار بين طبقة النبلاء والأجراء والعبيد والخدم والفلاحين، والذي أسفر عن ثورة أدت إلى سجن الفرعون وقتل النبلاء والاستيلاء على قصورهم واستغلال بعضهم في العمل سخرة لدى العبيد والفلاحين والأجراء[١].

كما أسهم تفكك البلاد إلى مناطق منعزلة في انهيار الري ومن ثم نقص الإنتاج الزراعي، وأسهمت الحروب المستمرة في إغلاق الحوانيت والاستعانة بالصناع في الحروب وموت الكثير من الصناع المهرة، وتعرض طرق التجارة للخطر والسلب والنهب، ما أضعف الاقتصاد المصري بشدة، وانتشر الفقر والجوع والفاقة، فكانت بعض الحروب يشنها الفقراء للحصول على الطعام والمأوى، وترتب على ذلك اختفاء الحقول الواسعة من أرستقراطية العاصمة، وصارت أملاك السادة أقل اتساعًا، ونشأت طبقة من السادة الجدد الذين اعتمدوا على القوة في تحقيق النبالة وجمع الأراضي والاستيلاء عليها بالقوة[٢].

وترتب على استقلال السادة عن الملك زيادة الفقر والحاجة، حيث وقع الفلاحون والخدم والعبيد فريسة للاستبداد الملكي واستبداد السادة، فكانوا ينزعون من الفلاحين والعبيد والفقراء أموالهم وحبوبهم ومحاصيلهم ويمنعونهم من الاحتجاج، ويضربونهم بلا رحمة، وإن ذهبوا ليشكوا الابتزاز والاغتصاب والقهر لا يجدون منصفًا[٣].

وهكذا يتضح أن أهم العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي أسهمت في سقوط الحضارة الفرعونية:

١. إهمال شؤون الري وانخفاض الإنتاج الزراعي.
٢. نقص الإنتاج الزراعي بسبب تمرد بعض الفلاحين والعبيد ورفضهم العمل من دون الحصول على أجرهم أو نفقات معيشتهم.

---

(١) دوما: **حضارة مصر الفرعونية**، (ص١١٢).

(٢) رينيس: **عصور ما قبل التاريخ في مصر**، (ص٨٨).

(٣) دياكوف، وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص١٣١-١٣٤).

٣. نقص العائد التجاري بسبب الحروب، وضعف تأمين طرق التجارة البرية والبحرية والنهرية.

٤. وقوع الفلاحين والعبيد والخدم بين شِقَّي رحى؛ الأول جبروت الملك، والثاني جبروت السادة.

٥. تجنيد الصناع والزراع في الحروب، وموت غالبيتهم في هذه الحروب والاضطرابات.

٦. قيام بعض الحكام بحروب إبادة راح ضحيتها الكثير من البسطاء والفقراء والفلاحين والعبيد أثناء قمع الانتفاضات والاضطرابات التي كانت تقع بين الحين والآخر.

٧. الصراع الطبقي الحاد الذي ثار بين طبقة النبلاء والأجراء والعبيد والخدم والفلاحين، والذي أسفر عن ثورة أدت إلى سجن الفرعون وقتل النبلاء والاستيلاء على قصورهم واستغلال بعضهم في العمل سخرة لدى العبيد والفلاحين والأجراء.

يتضح مما سبق أن الحضارة الفرعونية ازدهرت وانتشرت بفضل وجود مقومات تدعم ازدهارها، ومن أهمها الأمن والاستقرار والانتصارات التي حققها ملوك إمبراطورية مصر الحديثة، وبصفة خاصة فتوحات الأسرة الثامنة عشرة التي أدت إلى التوسع الجغرافي لمصر وسيطرتها على أجزاء ضخمة من الأراضي.

أما عوامل الانهيار والتصدع فقد جاءت مع ضعف الدولة بسبب الاضطرابات السياسية والتفكك والتصدع الداخلي الذي أصاب الدولة الفرعونية، وما ترتب عليه من تردي الأحوال الاقتصادية، ونشأة الصراع الطبقي بين الفلاحين والبسطاء الفقراء والعبيد والخدم من جهة، والملوك والنبلاء والسادة من جهة أخرى، ما كان له أبلغ الأثر في انهيار الحضارة المصرية بسبب الاضطرابات الداخلية التي سادت الدولة، والتي أدت إلى ضعفها وعجزها عن مواجهة حالات انفصال الأقاليم التي أخضعتها أو مواجهة الغزو الخارجي لأطرافها، حتى سقطت بأكملها على يد الإسكندر المقدوني.

الحضارة الفينيقية

لم تحدد المصادر التاريخية نشأة الحضارة الفينيقية تحديدًا دقيقًا، إلا أن بداياتها كانت متواضعة وعلى صورة مشاعات تجمع الصيادين على الشاطئ السوري، ثم ما لبثت أن تحولت إلى دول فينيقية صغيرة لم تتحد أبدًا في دولة واحدة، بل عاش كل منها حياته السياسية المستقلة، وتميزت منها أربعة ممالك كبرى هي: أوغاريت، وجبيل، وصيدون، وصور[١]. واسم فينيقيا يعني الشريط الرقيق الناعم من الشاطئ السوري، ويبدأ من صور حتى أوغاريت.

والفينيقيون جزء من الكنعانيين الذين عرفوا في بلاد الشام (سورية، لبنان، فلسطين، الأردن)؛ وهم أحد الشعوب السامية التي جاءت من شبه الجزيرة العربية ومن منطقة الخليج العربي. سكن الفينيقيون فينيقية منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، وكان للطبيعة البحرية للبلاد التي عاشوا فيها أكبر الأثر في تشييد السفن الضخمة والمرافئ على طول سواحلهم، واشتغالهم بالصيد والتجارة مع الدول المجاورة، فساعدهم الموقع الإستراتيجي على أن يكونوا ممرًّا للتجارة العالمية[٢].

سنن قيام الحضارة الفينيقية وعوامل ازدهارها والشواهد الدالة على قوتها

بدأت الحضارة الفينيقية بداية متواضعة وكانت لطبيعة أراضيها الجبلية دور في عدم توحدها تحت حكم دولة واحدة، كما كان لموقعها الإستراتيجي دور فعال في الازدهار والتوسع التجاري الذي أسهم بقوة في تطور الحضارة الفينيقية وازدهارها.

---

(١) دياكوف وكوفاليف: الحضارات القديمة، (ج١-ص١٦٥-١٦٦).

(٢) قرقوتي: الحضارة الفينيقية - موسوعة الحضارات القديمة الميسرة، دار النفائس، بيروت، ٢٠١١م، (ص٣١٥-٣١٦).

أ. العوامل السياسية

لم يمل الفينيقيون إلى إقامة دولة قوية على غرار البابليّين والآشوريّين والمصريّين بل كانوا مقسّمين إلى مدن عدّة متنافسة، منع وحدتها السياسية التنافس التجاري فيما بينها، وصعوبة المواصلات بسبب تخلل أراضيها جبال وغابات وأودية ومسالك وعرة. وبالرغم من عدم توصل المدن الفينيقيّة إلى تحقيق الوحدة السياسية بينها، إلا أن التحالف -أحيانًا- كان يتمّ بين بعضها بعضًا تحت زعامة إحدى المدن الكبرى لمواجهة الأخطار الخارجية التي كانت تهددها طمعًا في موقعها الإستراتيجي وأهميتها التجارية[١].

ومنذ بداية القرن التاسع قبل الميلاد ظهرت مجالس الحكماء لتحكم إلى جانب الملك في المدن الخاصة بالطبقات العليا (أرستقراطيات الطبقة العليا)، بل كان بعض هذه المجالس أكثر نفوذًا من الملوك، وفي وقت لاحق أصبحت معظم هذه المدن تحكمها حكومات مدنية تسمى (الشوفيت)، هذا على المستوى الداخلي، أما على المستوى الخارجي فقد وصلت مستعمرات الفينيقيين إلى آسيا وأوروبا وإفريقية، وبلغت أربع مئةمستعمرة تقريبًا، وأسسوا مدنًا في شمالي إفريقية مثل قرطاجة[٢].

وبمرور الوقت أصبح نظام الحكم عند الفينيقيّين ديموقراطيًّا، فكان لكل مدينة حكومة خاصّة بها يترأسها حاكم أو ملك يحكمها بالوراثة، سلطته مقيدة، ويساعده على إدارة الحكم مجلسان: الأول تمثيلي يضم هيئة من المشرعين، والثاني مجلس الأشراف (الأغنياء)، إضافة إلى مشاركة الكهنة في إدارة دفّة الحكم. وقد شكلت مدن صور وجبيل وأرواد اتحادًا اقتصاديًّا مركزه طرابلس التي كانت تعقد فيها المؤتمرات العامة للتداول في الشؤون الاقتصادية والمشكلات المشتركة والعمل على ضبط الاستقرار الداخلي كي تؤمن مصالح كل منها، كما كانوا يناقشون الأمور السياسية[٣].

---

(١) إدة، إميل: **الفينيقيون واكتشاف أميركا**، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٩٩م، (ص٣٥).

(٢) عبودي: **معجم الحضارات السامية**، (ص١٥).

(٣) قرقوتي: **الحضارة الفينيقية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٣١٦).

يمكن تلخيص أهم العوامل السياسية التي أسهمت في تطور الحضارة الفينيقية بما يأتي:

١. موقعها الجيوبولتيكي (الجغرافي السياسي) الإستراتيجي الذي جعلها مطمع الدول والممالك المجاورة بعد ذلك.
٢. أنظمة الحكم الشوفيتي الديموقراطي التي أرست دعائم العدل وأسهمت في توفير الأمن والاستقرار.
٣. إنشاء مستعمرات خارجية ضخمة أسهمت في زيادة قوة المدن الفينيقية.

ب. العوامل الاقتصادية

اعتمد الفينيقيون -بصفة عامة- في تطورهم على التجارة والتبادل التجاري مع الأمم المجاورة من خلال أساطيلهم التي تميزوا بها، وتتلخص أهم العوامل الاقتصادية التي كانت سببًا في ازدهار الحضارة الفينيقية وتطورها[١]:

١. الاهتمام بالتجارة البحرية منذ القرن الحادي عشر قبل الميلاد، حيث شمل نشاطهم البحري حوض البحر المتوسط كاملًا.
٢. الوساطة التجارية بين الغرب والشرق، والسيطرة على المراكز التي كانت تقصدها قوافل الصحراء في مدن (حماة) و(دمشق) و(تابساكس)[٢]

---

(١) قرقوتي: **الحضارة الفينيقية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٣١٦-٣٢٦)؛ إدة: **الفينيقيون واكتشاف أميركا**، (ص٣٦-٤٠)؛ عبودي: **معجم الحضارات السامية**، (ص١٦-١٩)؛ كونتنو، ج: **الحضارة الفينيقية**، ترجمة محمد عبدالهادي شعيرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م، (ص٣٥-٤١).

(٢) مدينة ساحلية على الساحل السوري بالقرب من طرطوس السورية، استخدمها الفينيقيون في ترويج السلع الشرقية التي من أهمها الديباج الأرجواني والحرير وغيرها من البضائع. انظر قرقوتي: **الحضارة الفينيقية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٣١٦).

obeikan.com

للتزود بالسلع الشرقية، وفتح وكالات ومستعمرات تجارية عديدة حول البحر المتوسط.

٣. إنشاء مراكز ترسو فيها السفن على الشاطئ الكنعاني الفلسطيني في (ريجيش) و(بيت بلت) و(حلمون) و(يافا)، كما كانت لهم مراكز لوكالاتهم التجارية في مصر في كل من (نوكراتس)[١] و(ممفيس)[٢] و(الرطاب)[٣].

٤. استيطان (قبرص) وجزر (بحر إيجة) وجزر (صقلية) و(سردينية) و(بنتليريا) و(الميدوسة) و(مالطة)، واتخاذها مراكز تجارية ضخمة.

٥. إنشاء قواعد تجارية في القرن التاسع عشر قبل الميلاد في (مالطة) و(غوزو) و(بانتاليرية) للانطلاق منها في تجارتهم مع إفريقية.

٦. إنشاء مراكز تجارية في (سردينية) و(إيبيسة) للانطلاق منها إلى إسبانيا لتحميل سفنهم بالفضة والقصدير.

٧. امتداد النفوذ القرطاجي إلى إسبانيا، وإنشاء عدد كبير من المراكز التجارية على سواحل ليبيا والمغرب وتونس وكذلك السواحل الإسبانية المواجهة لها، والتوغل في أوروبا الشمالية سعيًا وراء القصدير والفضة.

٨. اتجهاه السفن القرطاجية إلى (أوفير) للحصول على المعادن الثمينة والعاج.

٩. إنشاء القرطاجيين علاقات تجارية مع البرازيل لمدة ثمان مئة سنة تقريبًا، واستمرت بعثاتهم التجارية إلى أمريكا قرابة خمس مئة وخمسين سنة.

---

(١) مستوطنة يونانية قديمة في مصر القديمة، على الضفة الشرقية لقناة تبعد قرابة عشرة أميال غربًا من فرع رشيد من فروع النيل. انظر: عبودي: **معجم الحضارات السامية**، (ص١٢٢).

(٢) العاصمة القديمة لأول مملكة في مصر السفلى، وعاصمة مصر في عصر المملكة القديمة من وقت تأسيسها حتى (٢٢٠٠ سنة ق.م) تقريبًا. انظر: كونتنو: **الحضارة الفينيقية**، (ص٣٩).

(٣) مدينة تجارية أنشأها الفينيقيون وكالة تجارية لهم في منطقة أبو صير الحالية جنوب غرب القاهرة. انظر: عبودي: **معجم الحضارات السامية**، (ص١٢٣).

obeikan.com

١٠. كان الفينيقيون أول من داروا حول إفريقية لإنشاء مراكز تجارية للتبادل التجاري مع الشعوب الأفريقية، وذلك في المدة من (٦٠٩-٥٩٣ ق.م).

١١. تصدير السفن الفينيقية الأخشاب والنحاس، واستيرادها الذهب من (أوفير) والعطور والتوابل من سائر جهات شبه الجزيرة العربية.

١٢. يعد الفينيقيون أول أمة تاجرت في البر والبحر.

١٣. اشتهار الفينيقيين بصناعات عدة من أهمها: صناعة السفن التي جابوا بها العالم، وصباغة الأرجوان خاصة في صيدا وصور، إضافة إلى الصناعات الفينيقية المختلفة، مثل النبيذ والزيوت والغار، وخشب الأرز، والمنسوجات الصوفية والكتان، وبرعوا في صناعة الزجاج التي تعلموها من المصريين.

إذًا، يتضح أن أهم العوامل الاقتصادية التي أسهمت في تطور الحضارة الفينيقية:

١. الاهتمام بالتجارة، والبراعة في إنشاء المراكز التجارية، وتنويع المستعمرات في كل مكان بالبر والبحر.

٢. بناء أول أسطول تجاري، واستخدامه في البيع والشراء والتبادل التجاري عن طريق المستعمرات والمراكز التجارية التي أسسوها في كل مكان، سواء كانت خاصة بهم أو وكالات في دول أخرى.

٣. التوسع المستمر في البحث عن أسواق جديدة.

٤. نهضة قرطاجة وتنويعها لاقتصادها كقاعدة للانطلاق نحو التطور والرخاء.

٥. اتساع التجارة البحرية لبلاد اليونان، ورواج عمليات التصدير والاستيراد من خلال الطرق البحرية باستخدام السفن الفينيقية العملاقة.

ج. العوامل الاجتماعية

بصفة عامة كانت المشاعة[١] هي الخلية الاجتماعية الأساسية، وظهرت في المجتمع الفينيقي طبقات ثلاث هي[٢]:

١. طبقة الحكام والكهنة وكبار الموظفين، التي كانت تتحكم في نظام حكم كل دولة من الدول الفينيقية وتضع الأنظمة والتعليمات وتنفذها. وكانت هذه الطبقة تعمل بالتجارة، وتمتلك المشاعات التي يعمل فيها عدد كبير من العبيد.
٢. طبقة الصناع التي كانت تعمل بالصناعة، وهي الطبقة الوحيدة التي لم تكن تمتلك عبيدًا.
٣. طبقة التجار التي وصلت إلى أوج قوتها بسبب قيام الاقتصاد الفينيقي أساسًا على التجارة، حتى إن بعض التجار تولوا مقاليد الحكم في المدن الفينيقية وامتلكوا عددًا كبيرًا من العبيد والأتباع، وكذلك امتلكوا المشاعات الزراعية الضخمة.

وبذلك فإن أهم العوامل الاجتماعية التي أسهمت في تطور الحضارة الفينيقية:

١. طبقة التجار التي أسهمت في زيادة التبادل التجاري ونمو الاقتصاد الفينيقي بسرعة كبيرة.
٢. استغلال العبيد قوة منتجة في المجالات الاقتصادية جميعها.
٣. تنظيم الحكم والإدارة الديموقراطية التي قامت على المساواة والجد والعمل.

د. الشواهد التي تدل على قوة الحضارة الفينيقية

يمكن تسجيل الشواهد التي تدل على ما وصلت إليه الحضارة الفينيقية من قوة، على النحو الاتي[٣]:

---

(١) إقطاعات وأراض زراعية ضخمة امتلكها الحكام والكهنة وكبار الموظفين. انظر: دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص١٦٨).

(٢) المرجع السابق، (ص١٦٧).

(٣) قرقوتي: **الحضارة الفينيقية _ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٣١٧-٣٢٢).

١. تدوين الأحداث باللغة الفينيقية بدقة متناهية ووصف شامل، ما أسهم في حفظ الإنجازات الحضارية والإبداعات الفكرية، وبصفة خاصة في مجال التجارة البحرية والصناعة.

٢. الكتابات الفينيقية التي عثر عليها على مشارف الأناضول، والتي تعود إلى القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد في منطقي (قره تيه) و(زنجولي).

٣. ما ذكره المؤرخ النمساوي البروفيسور (لودوفيكو شونهاغن) عن وصول مستعمرات الفينيقيين إلى آسيا وأوروبا وأفريقيا، وأنها بلغت قرابة الأربع مئة مستعمرة في عام (١٥٠٠ ق.م)، وأن الفينيقيين أنشؤوا علاقات تجارية بين فينيقية والبرازيل لمدة ثمان مئة وثمانين سنة حتى هدم الإسكندر المقدوني عاصمتهم الكبرى صور في عام (٣٣٢ ق.م).

٤. التدوينات والكتابات الفينيقية المنتشرة في مستوطناتهم التي استخدموها مراكز تجارية في أنحاء العالم جميعها.

٥. مدينة قرطاجة التي أسسوها في شمالي إفريقيا والتي أسهمت بصورة كبيرة في توسيع نشاطهم التجاري.

٦. الشواهد التي عثر عليها في بلاد المغرب العربي (ليبيا، وتونس، والمغرب) والتي تدل على تكوين مستعمرة ومراكز تجارية قرطاجية.

٧. الشواهد والكتابات الفينيقية التي توضح جهود الفينيقيين وأهم إنجازاتهم المتمثلة في ما يأتي:

- قيامهم بالدوران حول إفريقية قبل البرتغاليين بقرابة ألف سنة.
- دراسة الملاحة، واكتشاف فوائد النجم القطبي في تحديد المواقع، لذلك أطلق عليه اليونانيون نجم الفينيقيين.
- اكتشاف المحيط الأطلسي.

openkan.com

- وصولهم إلى أمريكا قبل أن يكتشفها كريستوف كولومبوس، فقد عثر قرب مصب (واتوما) أحد أنهار ولاية الأمازون على نقوش قديمة جدًّا لإلهين فينيقيين وبينهما السفينة الفينيقية، إضافة إلى رسوم فينيقية كثيرة.
- العثور على هيكل فينيقي على شاطئ نهر واتوما.
- ما ورد في كتاب **الفينيقيون في جزيرة هايتي وعلى القارة الأمريكية** للفيكونت (أونفروا دي تورن) أن سكان هايتي الأصليين أخبروا المرسلين الأسبان الذين أموا العالم الجديد، بعد اكتشاف كريستوف كولومبوس، أنه منذ قرون عدة أتى بحارة من جهة البحر الشرقية، واحتلوا الجزيرة واستوطنوها مدة طويلة حتى انتصر عليهم جيش الكارابيت وأبادهم. كما أن اللغة المستخدمة في جزيرة هايتي مشتقة من اللغة الفينيقية.
- كان سكان جزيرة هايتي الأصليون يعبدون الشمس؛ وهو الإله المعبود عند الفينيقيين.

سنن سقوط الحضارة الفينيقية والعوامل التي ساعدت على انهيارها

كانت الحروب التي خاضها الفينيقيون من أهم أسباب ضعف حضارتهم، وكذلك أدى حرصهم على البقاء كدول مستقلة إلى التعجيل بانهيارهم على يد الإسكندر المقدوني عام (٣٣٣ ق.م).

أسهم في ضعف الحضارة الفينيقية وانهيارهاعوامل: سياسية، واقتصادية، واجتماعية، نبينها في ما يأتي:

أ. العوامل السياسية

تتمثل هذه العوامل السياسية في عدد من النقاط، هي:

١. عدم توحيد المدن الفينيقية تحت قيادة دولة واحدة، ما أدى إلى وجود التنافس المستمر والصراع بينها، مما أضعفها داخليًّا، وأسهم في إضعافها خارجيًّا.

٢. لم يكن التوسع الفينيقي يهدف إلى تكوين إمبراطورية قوية ممتدة، ولكن كان بهدف التجارة البحتة، ولذلك لم يجلب كيانًا سياسيًّا قويًّا موحدًا كالإمبراطورية الفارسية أو الرومانية.

٣. كان نظام وجودهم خارج بلادهم أشبه بنظام وجودهم داخل بلادهم في صورة مدن مستقلة لا تربط بينها سوى المصالح التجارية واللغة والدين.

٤. الحروب المستمرة بينهم وبين الإغريق والتي أسفرت عن سقوط طروادة وشواطئ آسيا الصغرى بيد الإغريق، وخسارة الفينيقيين في هذه الحروب لقرابة ثلاث مئة مستعمرة، ولم يتبق لهم سوى مئة مستعمرة في شمال إفريقية وأسبانيا.

٥. النزاع على الحكم بين ابن وابنة (منان) ملك صور، ما أدى إلى تفتيت قواهما بسبب الصراعات الداخلية والاضطرابات بين مؤيدي الفريقين.

٦. هزيمة القائد القرطاجي (هانيبال) من روما في معركة (زاما) عام (٢٠٢ ق.م) جنوب غربي قرطاجة.

٧. قيام ثلاثة حروب بين قرطاجة وروما استمرت قرابة مئة عام وانتهت بهدم قرطاجة وإحراقها.

٨. استسلام المدن الفينيقية للإسكندر المقدوني من دون قتال عام (٣٣٣ ق.م)، باستثناء مدينة صور التي فضلت أن تبقى على الحياد، فهاجمهم الإسكندر وحاصر جزيرتهم ودمرها وقتل وأسر غالبية سكانها[١].

---

(١) قرقوتي: **الحضارة الفينيقية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص٣١٦-٣٢٦)؛ إدة: **الفينيقيون واكتشاف أميركا**، (ص٣٨-٤٠)؛ عبودي: **معجم الحضارات السامية**، (ص١٨-١٩)؛ كونتنو: **الحضارة الفينيقية**، (ص٤٠-٤١)؛ دياكوف وكوفاليف: **الحضارات القديمة**، (ج١-ص١٦٦-١٧١).

ب. العوامل الاقتصادية والاجتماعية

كان للعوامل الاقتصادية والاجتماعية تأثير واضح في تدهور الحضارة الفينيقية بسبب الفجوة الكبيرة بين الطبقات الاجتماعية، فبالرغم من وجود النظام الديموقراطي، إلا أن طبقة العبيد كانت هي الطبقة المنتجة، وتحول بقية أفراد المجتمع إلى طبقات مستهلكة، حتى إنهم كانوا يتجرون بالعبيد، ويؤجرونهم في حالة عدم وجود عمل لدى مالكهم.

ولم تشهد المدن الفينيقية صراعًا طبقيًّا كتلك الصراعات العنيفة التي كانت تؤجج الثورات وغيرها من الاضطرابات الداخلية، إذ إن الاشتغال بالتجارة والرواج التجاري الذي كانت تعيشه المدن الفينيقية وحالة الازدهار حالت دون وقوع ذلك الصراع، والذي لا يتعدى بعض الاضطرابات كانت تخمد ويسيطر عليها بسهولة، كما كانت نظم الحكم الديموقراطية من أهم وسائل الاستقرار والأمن، في ضوء قلة عدد العبيد وضعف تأثيرهم في المجتمع الفينيقي، حيث كانت الطبقات والشرائح الاجتماعية جميعها تملك العبيد بخلاف الصناع، وكان العبيد يذكرون في الوصايا ضمن خانات الدواب والمواد الثمينة كالبرونز والفضة، وكانوا يعملون في المجالات جميعها[١].

أما الظلم الاجتماعي الذي توطد منذ بزوغ الممالك التجارية والعبودية الغنية، وتطور العبودية، فقد أثار بعض الاضطرابات والمكائد التي لم تتوقف، وكذلك بعض الثورات في أوساط العائلة المالكة حين دبرت أخت الملك مكيدة ضده ولكنها لم تنجح، ونشب عصيان مدني في القرن الخامس قبل الميلاد ولكن قضى عليه الحكام[٢].

ولكن الأحوال الاقتصادية وإن تقلصت بعض الشيء نتيجة خسارة الفينيقيين بعض مستعمراتهم وخسارتهم لعدة حروب ضد اليونانيين والرومان، إلا أنها لم تكن العامل

---

(١) عبودي، هنرس س: **معجم الحضارات السامية**، مرجع سابق، (ص٢١-٢٢)؛ كونتنو، ج: **الحضارة الفينيقية**، مرجع سابق، (ص٤٤-٤٥).

(٢) دياكوف، ف وكوفاليف، س: **الحضارات القديمة**، مرجع سابق، (ج١-ص١٦٨).

المؤثر، فقد آثرت المدن الفينيقية السلامة واستسلمت للإسكندر المقدوني؛ باستثناء صور[١].

تتلخص أهم العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي أسهمت في سقوط الحضارة الفينيقية بما يأتي:

١. استغلال شرائح المجتمع كافة العبيد (باستثناء الصناع).
٢. خسارة بعض المستعمرات والمراكز التجارية في الحروب مع اليونانيين والرومانيين.
٣. الاضطرابات الداخلية بسبب الصراع على الحكم بين النخب الحاكمة.

مما سبق يتضح أن العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية حصلت على نصيب الأسد من العوامل التي كانت سببًا في ازدهار الحضارات (الصينية، والفرعونية، والفينيقية)، وكذلك كانت سببًا في سقوطها، مع التداخل الشديد في هذه العوامل فقد تكون أسبابًا للازدهار أو أسبابًا للتدهور وغياب الاستقرار، فالتوحد وإنشاء كيان سياسي قوي، وتحسين الأحوال الاقتصادية، وتنظيم معيشة المجتمع بالقوانين والأنظمة العادلة، كان دائمًا سببًا لقيام الحضارات وازدهارها، بينما الحروب الطاحنة والصراع على الحكم والظلم الاجتماعي كان من أهم أسباب تدهور الحضارات وانحصار تأثيرها وزوالها.

حضارة روما القديمة

نشأت الحضارة الرومانية في مدينة روما التي أسسها التوأمان (رومولوس وريموس) سنة (٥٧٣ ق.م) على ضفة نهر (التيبر) في وسط إيطاليا، وسمي الرومان بهذا الاسم نسبة إلى عاصمتهم روما التي تعد أقدم عاصمة في الدول الغربية القائمة اليوم، وهي

(١) قرقوتي، حنان: **الحضارة الفينيقية _ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، مرجع سابق، (ص٣١٦-٣١٧).

تمثل المركز الروحي للعالم المسيحي منذ القرن الأول لميلاد السيد المسيح عليه السلام، وهي التي ساعدت على تحضر العالم العربي.

وتضم مدينة روما بين جنباتها الكثير من الآثار القديمة التي تشير إلى حضارة عريقة موغلة في القدم، حيث عاشت هذه المدينة مئات السنين مركز القوة في أوروبا وشمالي إفريقيا وغربي آسيا(١).

وبعد التوسع الكبير للإمبراطورية الرومانية بدأت في الانهيار بسبب عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية، كما أسهمت الحروب مع الدولة الإسلامية الناشئة في زوال الإمبراطورية الرومانية وتدهورها حيث تعرضت لخسائر فادحة في حروبها مع العرب والمسلمين، وبصفة خاصة الحروب مع الخلفاء الراشدين، والأمويين، والعباسيين، والترك، والسلاجقة، والعثمانيين الذي سقطت على أيديهم القسطنطينية أخر معقل من معاقل الرومان البيزنطيين(٢).

سنن قيام الحضارة الرومانية وعوامل ازدهارها والشواهد الدالة على قوتها

ارتكزت الحضارة الرومانية على تكوين دولة قوية موحدة، ومن ثم الاعتماد على سياسة التوسع على حساب جيرانها عن طريق الحروب المستمرة، ومن ثم تعزيز الاقتصاد الروماني بالحصول على ثروات الدول المفتوحة وإرسالها إلى روما، وكذلك اعتماد أنظمة حكم قوية، ولكنها غالت في استخدام العبيد وبصفة خاصة من أسرى الدول المهزومة، كما قام الاقتصاد الروماني على الرأسمالية التي أوجدت فجوة كبيرة بين الطبقات الاجتماعية فازداد الأغنياء غنى وازداد الفقراء فقرًا.

---

(١) إسماعيل، علي وأحمد، علي: **تاريخ بلاد الشام القديم**، مركز الشام للخدمات الطباعية، دمشق، ١٩٩٨م، (ص١٨).

(٢) جيبون، إدوارد: **اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها**، ترجمة محمد علي أبو درة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٧م، (ص١٢٥).

أ. العوامل السياسية

مرت الحضارة الرومانية بمراحل سياسية ثلاث أثرت في تطور الحضارة الرومانية وأسهمت في ازدهارها:

الأولى مرحلة النظام الملكي

امتدت هذه المرحلة قرابة قرن ونصف منذ قيام مدينة روما عام (٧٥٣ ق.م) حتى عام (٥٠٩ ق.م)، وتوالى على حكم روما ستة ملوك، وكان مجلس الشيوخ (السناتو) المشكل من زعماء عائلات روما البارزة يوجه الملك، وكان محرمًا على أعضاء المجلس الزواج من الممثلات بهدف المحافظة على منزلتهم واحترامهم، ولكن ألغي العمل بهذه السنة في عهد (يوسنينوس الأول)؛ الذي كان يلتقي المواطنين في مجالس للتصويت على قرارات الملك ومجلس الشيوخ الذي لم يكن له أي اختصاص تشريعي، فقد كان الملك هو القانون ومصدره، وهو الذي ينظم العلاقات بين الناس أكثر من القانون، وكان يعين محكمين للفصل في النزاعات وإصدار الأحكام باسم الملك، كما كان يمارس سلطات جنائية موسعة ضد جرائم الجناية والقتل من دون مبرر[١].

الثانية مرحلة النظام الجمهوري

امتدت هذه المرحلة قرابة خمس مئة سنة في المدة من (٥٠٩ ق.م) حتى (٢٧ ق.م)، حيث وطدت روما في هذه المدة سيطرتها ومركزها، واكتسبت عن طريق الحروب تجاربها السياسية والإدارية، واستفادت من حضارات الشعوب الأخرى. واحتفظ النظام الجمهوري بمجلس الشيوخ والمجالس الشعبية، وترأس الحكومة موظفان منتخبان يطلق على كل واحد منهما (قنصل)، ويخدم مدة سنة واحدة، وكان بإمكان كل منهما نقض إجراءات القنصل الآخر[٢].

---

(١) عبودي: **معجم الحضارات السامية**، (ص١٢٢).

(٢) عطاء، زبيدة: **الدولة البيزنطية من قسطنطين إلى إمستاسيوس**، دار الفكر، بيروت، د.ت، (ص١٥).

وتعاظمت سلطة مجلس الشيوخ على ما سواها في مرحلة النظام الجمهوري، حيث تولى توجيه السياسة الخارجية ومعالجة الأمور المالية الحكومية، وكانت عضويته مدى الحياة، وأعضاؤه من أبناء أقدم عائلات روما وأغناها. أما مجلس العامة فقد كان له نفوذ ضئيل، ثم ما لبث أن ازداد نفوذهم حتى ماثل نفوذ أعضاء مجلس الشيوخ. وفي أواخر النظام الجمهوري عام (٦٤ ق.م) فتح القائد الروماني (بومبي) شرقي تركيا وسورية وفلسطين، وحين عاد إلى روما رفض مجلس الشيوخ الاعتراف بانتصاراته، فشكل في عام (٦٠ ق.م) حكومة ثلاثية، ومنذ ذلك الحين حتى قيام الإمبراطورية عام (٢٧ ق.م) تولت الحكم في روما حكومتان ثلاثيتان هما: الحكومة الثلاثية الأولى وتألفت من بومبي، ويوليوس قيصر، وليسينوس. والحكومة الثلاثية الثانية وتكونت عام (٤٣ ق.م) من أنطونيوس، وأوكتافيوس، وليبيدوس واستمرت حتى عام (١٣ ق.م)[١].

الثالثة مرحلة النظام الإمبراطوري

امتدت هذه المرحلة منذ سقوط الحكم الجمهوري في روما عام (٢٧ ق.م) بعد عشرين سنة من الحرب الأهلية وحتى سقوط روما عام (٤٧٦م)، وكان أول إمبراطور فيها هو (أوكتافيوس) الذي اتخذ اسم (أوغسطس) أي المعظم. وخلال هذه المرحلة أمسك الأباطرة بالسلطة العليا، وأبقوا على المؤسسات الحكومية القديمة للعصر الجمهوري، وكانوا يسمون القناصل، ويعينون أعضاء جددًا لمجلس الشيوخ، ولم يكن للمجالس الشعبية سوى سلطة ضئيلة. وكان الأباطرة أو القناصل يقودون الجيش ويتحكمون في صياغة القانون، ويعتمدون على مستشاريهم أكثر مما يعتمدون على مجلس الشيوخ، وكان هناك جهاز إداري واسع من الموظفين المدنيين الذين تولوا تصريف شؤون الإمبراطورية يوميًّا[٢].

---

(١) نصحي، إبراهيم: **تاريخ الرومان منذ أقدم العصور حتى عام (٣٣ ق.م)**، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣م، (ص٥٥).

(٢) **الموسوعة العربية العالمية: الموسوعة العربية العالمية**، ترجمة أحمد عبداللطيف أحمد وآخرون، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٩٩٩م، (ص١٨).

وقد قامت السياسة الرومانية على التوسع عن طريق محاربة جيرانها والانتصار عليهم وضم أملاكهم وأراضيهم إليهم، وتحويل الأسرى إلى عبيد لاستخدامهم طاقة إنتاجية مجانية، وفي عام (٢٧٥ ق.م) هيمنت روما على معظم شبه الجزيرة الإيطالية، وقدمت إلى المدن التي فتحتها الحماية وبعض امتيازات المواطنة الرومانية، وفي المقابل زودت المدن المفتوحة الجيش الروماني بالجنود. كما سعت إلى التوسع البحري بمحاربة قرطاج عن طريق الحروب البونية الثلاث، فكانت نتيجة الحرب الأولى في المدة من (٢٦٤-١٤٢ ق.م) استيلاء روما على جزر صقلية وسردينيا وكورسيكا، وفي الحرب البونية الثانية (٢١٨-٢٠١ ق.م) هزمت القوات الرومانية القائد القرطاجي (هانيبال)، وفي الحرب البونية الثالثة (١٤٩-١٤٦ ق.م) دمرت روما قرطاج، وخضع ساحل البحر المتوسط في إسبانيا وإفريقيا للسيطرة الرومانية[١].

وبعد انتهاء الحروب البونية، بدأت روما في التوسع نحو الشرق وفي عام (١٤٠ ق.م) سيطرة روما على بلاد اليونان ومقدونيا، كما توفى (أتالوس الثالث) ملك برجاموم[٢] حليف الرومان الذي أوصى بمملكته إلى روما. وفي عام (٦٤ ق.م) سيطرت روما على منطقة شرقي تركيا وسورية وفلسطين. وفي عام (٣٠ ق.م) سيطرت روما على مصر وجعلتها ولاية رومانية بعد الحرب التي دارت بين القائدين الرومانيين (أوكتافيوس) و(أنطوني) للسيطرة على روما، والتمس أنطوني الدعم من كليوباترا ملكة مصر، ومن ثم وقعا في غرام بعضهما بعضًا. وفي عام (٣١ ق.م) هزم أوكتافيوس قوات أنطوني وكليوباترا في معركة (أكتيوم) بالقرب من الساحل الغربي لليونان. وفي عام (٣٠ ق.م) تمكن الرومان من السيطرة على مصر بعد مقتل أنطوني وانتحار كليوباترا[٣].

---

(١) إسماعيل وأحمد: **تاريخ بلاد الشام القديم**، (ص١٩-٢٠).

(٢) برجاموم: إحدى المدن القديمة الشهيرة في غربي آسيا الصغرى (تركيا حاليًّا). انظر قرقوتي، حنان: **الحضارة الرومانية - موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، دار النفائس، بيروت، ٢٠١١م، (ص١٧٩).

(٣) جيبون، إدوارد: **اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها**، مرجع سابق، (ص١٢٦-١٣٠).

ومن أهم الأسباب التي أدت إلى توسع الإمبراطورية الرومانية وانتشار حضارتها وزيادة تماسكها خلال العصر الجمهوري[١]:

أ. سياسة السناتو (مجلس الشيوخ) في إصدار القرارات ومباشرة السياسة الخارجية.

ب. تسابق القناصل إلى إحراز النصر والتغلب على الشعوب الأخرى.

ج. الحماس العسكري في الشعب.

د. انتشار الهلنستية (الأفكار الإغريقية اليونانية) التي أثرت بعمق في مختلف الولايات منذ العهد الروماني.

هـ. وحدة العقيدة الدينية، رغم بعض الفوارق التي نشأت على الصعيد اللاهوتي والتي أسفرت عن قيام عدة بطريركيات متصارعة في الإسكندرية وأورشليم وأنطاكية والقسطنطينية.

وتعد انتصارات (يوليوس قيصر) من أبرز العوامل السياسية التي أسهمت في تطور الحضارة الرومانية، فبالرغم من أنه كان من طبقة النبلاء إلا أنه تقرب من طبقة العوام، وكسب حب غالبية الشعب الروماني وتقديره، وكون جيشًا كان يخضع بكامل الولاء له، وحقق انتصارات مدوية بالسيطرة على فرنسا وغزو بريطانيا مرتين، فخشي مجلس الشيوخ والقنصل الروماني (بومبيوس) من نفوذ قيصر فأصدر مجلس الشيوخ أمرًا بتسريح جيشه، فأسرع قيصر بالعودة لروما وهاجمهم واستولى على حكم روما، وتوالت انتصاراته في الشرق والغرب وأصبح سيد الإمبراطورية الرومانية الأوحد، فمنح الشعب حريته وقضى على الفوضى ونشر الأمن، وضرب على أيدي المفسدين والمرتشين، وشغل العاطلين عن العمل، ومنح حق الرعاية الرومانية لسكان البلاد الخاضعة لروما جميعهم، ووضع التقويم اليولياني، وأطلق اسمه على أحد الشهور (يوليو). إلا أن مجلس الشيوخ كان يحاول إعادة النظام الجمهوري السابق لكي يكتسب أعضاؤه صلاحيات حقيقية ولم

---

(١) قرقوتي: **الحضارة الرومانية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص١٨٠).

يرض بحكم قيصر وتحكمه في مقاليد الحكم كافة، فاغتيل قيصر عام (٤٤م) في قاعة مجلس الشيوخ[١].

وقد برع الرومانيون في السياسة، وكانوا سباقين في هذا الميدان بين الأمم التي سبقتهم، ودعموا ذلك بثقافة تساعد على الوحدة الفكرية بهدف توحيد الدول الواقعة حول حوض البحر الأبيض المتوسط[٢].

وهكذا يتضح أن أهم العوامل السياسية التي أسهمت في تطور الحضارة الرومانية:

١. التوسع والفتوحات المستمرة التي أدت إلى خضوع غالبية دول العالم للدولة الرومانية.
٢. الإدارة الحكومية الناجحة، وإقامة علاقات جوار مع الخارج.
٣. النهضة العلمية غير المسبوقة التي سادت عصر الإمبراطورية الرومانية.
٤. الحماس العسكري في الشعب الروماني وارتكاز عقيدته على التوسع والقوة.

ب. العوامل الاقتصادية

اعتمد المجتمع الروماني القديم على الزراعة وتربية الحيوانات، واكتشف الرومان أن ترك نصف الحقل بورًا كل سنة يجعل التربة أغنى لزراعة المحاصيل في السنة التالية. وقد أنتجت أراضي الإمبراطورية الرومانية حاصلات وفيرة وفواكه متنوعة. وبتوسع رقعة الإمبراطورية الرومانية تغيرت الحياة الريفية، حيث أرسل عدد كبير من المزارعين لخوض الحروب الخارجية مددًا طويلة، ولذلك اضطروا لبيع أراضيهم، فأنشأ أثرياء الرومان مزارع ضخمة زرعوا فيها محاصيل متنوعة، وربوا المواشي من أجل التجارة، واشتروا العبيد للعمل لديهم، كما كانوا يؤجرون الأراضي للمزارعين التابعين لهم[٣].

---

(١) باقر: **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، (ص٦٦٦-٦٦٨).

(٢) إسماعيل وأحمد: **تاريخ بلاد الشام القديم**، (ص٣٠).

(٣) نصحي: **تاريخ الرومان منذ أقدم العصور حتى عام (٣٣ ق.م)**، (ص٥٧-٥٨).

وقد اشتهرت روما بصناعات متنوعة من أهمها صناعة الفخار، والأواني الفخارية والزجاجية، والأسلحة، والأدوات، والمنسوجات، إضافة إلى صناعة الآجر، والأنابيب الرصاصية لأشرعة السفن، فضلًا عن صناعة التعدين، واستخراج المعادن من المناجم من بلدان عديدة، حيث اشتهرت إيطاليا بالنحاس والحديد الخام، وإسبانيا بالذهب والفضة، وبريطانيا بالرصاص والقصدير. ولما كان العمل في المناجم شاقًّا، فقد أجبر الرومان المُستعبَدين والمجرمين المحكومين وأسرى الحرب على العمل فيها[١].

أما التجارة فقد ازدهرت بصورة كبيرة مع توسع الإمبراطورية الرومانية، وقامت السفن الرومانية العملاقة بنقل البضائع بين مختلف موانئ البحر المتوسط، كما كانت هناك شبكة من العربات والمركبات تنقل البضائع بين أرجاء الإمبراطورية. وكانت المعابد الرومانية تنظم معارض تجارية دورية على أراضيها، واشتملت الواردات الرئيسة لمدينة روما على المواد الغذائية، والمواد الخام، والسلع المصنعة، بينما صدرت شبه الجزيرة الإيطالية الخمور وزيت الزيتون. وتاجر الرومان مع بلاد تقع خارج حدودهم؛ فاستوردوا الحرير من الصين، والتوابل والأحجار الكريمة من الهند وجنوبي الجزيرة العربية، والعاج من إفريقية. وسكَّت الحكومة الرومانية قطعًا من الذهب والفضة والنحاس والبرونز، وتحكمت بالموارد المالية لجعل التجارة أكثر سهولة. وقد ساعد على ازدهار التجارة الأسطول الروماني الضخم الذي شيده الرومان[٢].

يتضح مما سبق أن أهم العوامل الاقتصادية التي أسهمت في تطور الحضارة الرومانية:

١. إنشاء مقاطعات زراعية ضخمة وتنوع المحاصيل ووفرتها، وتربية المواشي.
٢. الاهتمام بالصناعة والتعدين والحصول على ثروات معدنية طائلة من المناجم التابعة للإمبراطورية الرومانية.

---

(١) جيبون: **اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها**، (ص١٣٣).

(٢) قرقوتي: **الحضارة الرومانية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص١٨٨).

٣. صناعة الآلات الزراعية واستخدامها.

٤. تشغيل العبيد والمحكومين وأسرى الحرب في المناجم.

٥. التبادل التجاري الواسع بوساطة الأسطول البحري القوي.

٦. تأسيس شبكة من الطرق البرية والبحرية لنقل البضائع داخل وخارج الإمبراطورية الرومانية.

ج. العوامل الاجتماعية

أسهمت طبقة العبيد وأسرى الحرب والفلاحين والمزارعين بجهودهم في ازدهار الحضارية الرومانية. وقد تكون المجتمع الروماني من طبقات أربع هي[١]:

١. طبقة النبلاء التي مثلت صفوة المجتمع الروماني ذات المكانة السامية من حيث الملبس والمسكن والوظيفة وعدد الأتباع والثروة والجاه، وكانت هذه الطبقة تمتلك الكثير من الضياع والتجارة، وتحصل على الرشاوى، وتمارس السلب والابتزاز، وتحصل على الهبات بدرجات متنوعة.

٢. طبقة الفرسان التي تعد الأساس الأرستقراطي للمجتمع، وتتكون من أصحاب رؤوس الأموال وكبار ملاك الأراضي، حتى إن بعضهم تجاوز ثراء بعض النبلاء.

٣. طبقة العامة التي تعد عصب المجتمع الروماني الاقتصادي في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة، حيث شكلت الغالبية العظمى لصغار الملاك، لكنها انهارت تحت وطأة الكوارث الاقتصادية التي ألمت بالدولة.

٤. طبقة العبيد ممن كانوا ينتمون إلى ولايات الدولة الرومانية أو إلى أسرى الحرب، وكانوا يستخدمون في المصارعة الرومانية المعروفة، حيث يتقاتل

---

(١) قرقوتي: **الحضارة الرومانية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص١٩٠).

كل اثنين أمام المشاهدين ليقتل أحدهما الآخر. وقد عمل العبيد في أنواع المجالات الاقتصادية جميعها، وكان مسموح لهم بادخار الأموال لشراء حريتهم أو الحصول على ممتلكات.

مما سبق فإن أهم العوامل الاجتماعية التي أسهمت في تطور الحضارة الرومانية:

١. امتلاك النبلاء والأمراء أراضي زراعية شاسعة لاستغلالها في الزراعة.
٢. استغلال الفقراء والعبيد في الزراعة والصناعة وغيرها مقابل قوتهم الضروري.
٣. حسن إدارة الأملاك الزراعية الشاسعة.
٤. مساهمة طبقة العامة في نهوض الاقتصاد الروماني.

د. الشواهد الدالة على قوة الحضارة الرومانية

تعد في مقدمة هذه الشواهد الآثار التاريخية التي تزخر بها روما حتى الآن مثل التماثيل الضخمة وبعض المعابد التي تزين جدرانها انتصارات الرومان في بعض معاركهم وفتوحاتهم، إضافة إلى ما خلفته روما من آثار في البلدان جميعها التي أخضعتها وضمتها إليها إبان حكم الإمبراطورية الرومانية[١].

وأهم الشواهد التي تشير إلى قوة الحضارة الرومانية وازدهارها[٢]:

١. الحركة العلمية والفلسفية التي وضعت أساس النهضة الصناعية والتقنية.
٢. براعة الرومان في السياسة، حيث سبقوا الأمم في هذا المضمار، ونقلت الحضارة الغربية عن يوليوس قيصر آراء لا تعد ولا تحصى حول الإدارة

---

(١) ليسنر، د. إيفار: **الماضي الحي حضارة تمتد سبعة آلاف سنة**، ترجمة شاكر إبراهيم سعيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٩١م، (ص٢٧).

(٢) قرقوتي: **الحضارة الرومانية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص١٨٤-١٨٧).

والحكومة والقانون، فهو الذي أدخل التقويم الحديث، واستطاع المزج بين مفهومي (الديموقراطية الحرة) و(الحكم المطلق).

٣. ربطت الإمبراطورية الرومانية من يعيشون فيها من أمم مختلفة بنظام قانوني وحكم مشترك.

٤. قدم القانون الروماني الأساس للنظم التشريعية لمعظم بلدان أوروبا الغربية وأمريكا اللاتينية.

٥. نشر الرومان أولى مدوناتهم القانونية المعروفة عام (٤٥٠ ق.م)، وأطلقوا عليها (القوائم الإثنتي عشرة للقوانين)، وبمرور الوقت أسفرت عن مجموعة شاملة من القواعد التشريعية (قانون الأمم) طبقت على مختلف الشعوب التي عاشت في ظل الحكم الروماني.

٦. أصبحت لغة الرومان القدماء (اللاتينية) أساس اللغات الإيطالية والفرنسية والإسبانية واللغات الرومانية الأخرى.

٧. تشير الآثار إلى المدارس الرومانية وكذلك المسارح الرومانية المنتشرة في بقاع كثيرة حول العالم، مما يعبر عن نمو الأدب الروماني وانتشاره وتطور الأدب المسرحي والشعر الحماسي، وقد لاقت الفلسفة الإغريقية رواجًا عند الرومان، وخاصة المدرسة الرواقية[١].

٨. بلغت روما ذروة الحكمة السياسية والأدبية في عهد حكم (أوغسطس) الذي برع في فن الخطابة ورفع من شأن اللغة اللاتينية.

---

(١) المدرسة الرواقية: مدرسة فلسفية انتشرت في إطار الثقافة اليونانية في القرن الرابع قبل الميلاد، تحت تأثير الأفكار التي تدعو إلى المواطنة العالمية، وتحت تأثير الأفكار ذات النزعة الفردية، وتحت تأثير التطورات التقنية التي فرضها التوسع في المعرفة الرياضية. انظر عبودي: **معجم الحضارات السامية**، (ص١٤٢).

obeikan.com

٩. ما دونه المؤرخ ليفي[١] من الكتابات التاريخية عن تاريخ الرومان وتطور حضارتهم وانتصاراتهم خلال (١٤٢) جزءًا لم يتبق منها سوى (٣٥) جزءًا.

١٠. صور المدن الرومانية التي توضح تخطيطها بعناية، وتشييد المباني العامة في أماكن مناسبة وتزويدها بشبكات المياه والمجاري، ومن أبرز المظاهر (الفورم) الروماني وهو ميدان كبير تحيط به المعابد والأسواق والمباني الحكومية.

١١. صور (البانثيون) المعبد الروماني الذي يعد من الناحية الفنية من أعظم المباني التي بلغت حد الكمال في فن العمارة العالمي، وهو هيكل الآلهة جميعها الذي أمكن الحفاظ عليه إلى اليوم.

١٢. استخدام الأقواس في أعمال البناء.

١٣. التماثيل الكاملة والنصفية، والنقوش البارزة الزخرفية الجنائزية والتاريخية.

١٤. قطع الرومان شوطًا كبيرًا في فن التصوير، وتركوا صورًا حائطية لنباتات وحيوانات وما شابه، إضافة إلى الصور البشرية، وإلى استخدام الفسيفساء في تصميم الكنائس.

سنن سقوط الحضارة الرومانية والعوامل التي ساعدت على انهيارها

أسهمت الصراعات السياسية على الحكم والحروب التي ترتبت عليها في إضعاف الحضارة الرومانية وتدمير اقتصادها، وكذلك عدم القدرة على إدارة ممتلكات الإمبراطورية المتسعة المترامية الأطراف، إضافة إلى الصراع بين الملك ومجلس

---

(١) تيتوس ليفيوس مؤرخ روماني ولد عام (٥٩ ق.م). في مدينة بادوا شمالي إيطاليا. ويعد أشهر من أرخ للعصر الجمهوري، الذي عايش سنواته الأخيرة وأحداثه الكبرى التي أدت إلى قيام النظام الإمبراطوري الروماني. وقد نشأ في أسرة نبيلة محافظة تقلد عدد من أبنائها مناصب رفيعة. انظر نصحي: **تاريخ الرومان منذ أقدم العصور حتى عام (٣٣ ق.م)**، (ص٦٠).

الشيوخ، وكذلك الصراع اللاحق بين مجلس الشيوخ ومجلس العامة الذي فتح المجال أمام الطبقات الدنيا للمطالبة بحقوقها، ما أدى إلى دخول الصراع الاجتماعي كطرف ثالث مع العوامل السياسية والاقتصادية في إضعاف الحضارة الرومانية وسقوطها، خاصة بعد ظهور الإسلام الذي سعى لتخليص شعوب الأرض من ظلم الرومان واضطهادهم وسعيهم للسيطرة على شعوب الأرض وإخضاعها لخدمة الجنس الروماني عن طريق الاستيلاء على ثروات الشعوب وتحويلها إلى روما.

أسهم في ضعف الحضارة الرومانية وانهيارها عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية على النحو الآتي:

أ. العوامل السياسية

تسبب النقص السياسي في نظام الحكم في انهيار الحضارة الرومانية، وعجز مجلس الشيوخ الروماني عن تنظيم إدارة عادلة لائقة بالممتلكات الرومانية في كل مكان والتي ازدادت بصورة مضطردة بعد سقوط العديد من الدول في أيدي الإمبراطورية الرومانية على أثر الفتوحات الخارجية، إضافة إلى نمو الرغبة الاستبدادية والتوسعية في نفوس الحكام الرومانيين الذين أصبح غاية همهم سلب خيرات الأقاليم التابعة للدولة الرومانية[١].

وأهم المظاهر التي توضح تأثير العوامل السياسية في انهيار الحضارة الرومانية[٢]:

١. الصراع على السلطة والنفوذ بين مجلس الشيوخ والإمبراطور من جهة، وبين مجلس الشيوخ ومجلس العامة من جهة أخرى.

---

(١) باقر: **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، (ص٦٦٤).

(٢) قرقوتي: **الحضارة الرومانية ـ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص١٧٨-١٨٣)؛ إسماعيل وأحمد: **تاريخ بلاد الشام القديم**، (ص٣٢-٣٥)؛ جيبون: **اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها**، (ص١٣٥-١٤٠).

٢. الصراعات بين القادة التي أدت إلى وقوع الاضطرابات في روما، بجانب الثورات التي قام بها حلفاء روما الإيطاليون، وكذلك الحرب التي اندلعت في آسيا الصغرى.

٣. عدم التمكن من السيطرة على حكم أراضي الإمبراطورية نظرًا لتوسعها، ففي عام (٢٨٤ ق.م) قام الإمبراطور (ديوكليشيان) بتقسيم الإمبراطورية إلى وحدات أصغر بغية إعادة النظام، بحيث يصبح لكل وحدة حكومتها وجيشها الخاص بها. وقام بتعيين جندي يدعى (ماكسيميان) ليكون إمبراطورًا مشاركًا، كما عين نائبين ليخلفاهما. وحكم ماكسيميان القسم الغربي من الإمبراطورية في حين حكم ديوكليشيان القسم الشرقي، وبعد ذلك أسست القسطنطينية وقسمت الإمبراطورية إلى قسمين.

٤. بعد موت الإمبراطور (ثيودوسيوس الأول) عام (٣٩٥م) انقسمت الإمبراطورية إلى قسمين: الإمبراطورية الرومانية الشرقية، والإمبراطورية الرومانية الغربية. وأخذت الإمبراطورية الغربية تضعف تدريجيًّا، حيث هاجم (الوندال) (شعب جرماني إسكندنافي)، والقوط الغربيون، وشعوب جرمانية أخرى كلًّا من إسبانيا والغال وشمال إفريقية، ونهب القوط الغربيون مدينة روما عام (٤١٠م). وسقط القسم الغربي من الإمبراطورية الرومانية في عام (٤٧٦م)، وعزل الزعيم الجرماني (أدواسر) آخر حاكم للإمبراطورية الرومانية الغربية ويدعى (رومولوس أوغتولوس) عن العرش، وبدأ الزعماء الجرمان في تقسيم الإمبراطورية الرومانية إلى ممالك عديدة.

٥. مهاجمة القبائل المتبربرة الحدود وعقد هدن معها، حيث توصل (أوغسطس) إلى إبرام معاهدة مع قبائل البارثيين أدت إلى استعادة الأسرى الذين أخذوا في هزيمة (كراسوس).

٦. سلطان البابوات الزمني وسعيهم لزيادة سلطاتهم وتدبيرهم للكثير من المكائد والثورات ضد حكام البلدان الرومانية الذين وقفوا حائلًا بينهم وبين الحصول على السلطة.

٧. شخصية الرسول محمد ﷺ ودينه الذي انتشر من الجزيرة العربية، وأسهم في الفتوحات الإسلامية التي شكلت البداية الحقيقية لتقلص نفوذ الإمبراطورية الرومانية الشرقية وتفككها وانهيارها، حيث استمرت المعارك بين المسلمين والرومان بدايةً من معركة اليرموك وتسليم القدس الشريفة للمسلمين وفتح مصر زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وتمكن الأتراك السلاجقة عام (١٠٧١م) تحت قيادة (ألب أرسلان) من هزيمة الرومان البيزنطيين وأسر إمبراطورهم (رومانوس ديوجيتس)، وبعد مرور عشرين سنة تقريبًا خضعت الولايات الرومانية في آسيا الصغرى للسلطان (سليمان السلجوقي)، وتبعتها أنطاكية التي سلمت، وكذلك المدن جميعها من اللاذقية إلى أرباض حلب، وامتدت فتوحات السلطان سليمان من اللاذقية إلى البسفور.

٨. استعان السلطان سليمان بالأسرى اليونانيين في بناء أسطول بحري يتألف من مئتي سفينة. وقد حاصر الجيش العثماني بقيادة السلطان (محمد الفاتح) القسطنطينية التي سقطت في أيدي المسلمين في التاسع والعشرين من مايو عام (١٤٥٣م)، وأسدل الستار على آخر معقل من معاقل الإمبراطورية الرومانية على يدي المسلمين.

مما سبق يتضح أن أهم العوامل السياسية التي أسهمت في سقوط الحضارة الرومانية:

١. الصراع على السلطة والنفوذ.

٢. الصراعات بين القادة التي أدت إلى وقوع الاضطرابات والثورات والتعرض لحروب خارجية.

٣. عدم التمكن من السيطرة على حكم أراضي الإمبراطورية نظرًا لتوسعها.

٤. انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين: الإمبراطورية الرومانية الشرقية، والإمبراطورية الرومانية الغربية.

٥. مهاجمة القبائل المتبربرة الحدود.

٦. سلطان البابوات الزمني، وسعيهم لزيادة سلطاتهم وتدبيرهم الكثير من المكائد والثورات ضد حكام البلدان الرومانية.

٧. شخصية الرسول محمد ﷺ ودينه الذي انتشر من الجزيرة العربية، وأسهم في الفتوحات الإسلامية التي شكلت البداية الحقيقية لتقلص نفوذ الإمبراطورية الرومانية الشرقية وتفككها وانهيارها.

٨. سقوط القسطنطينية على يد المسلمين.

ب. العوامل الاقتصادية والاجتماعية

تسبب الصراع الذي دار بين الإقطاعيين للسيطرة على المزارع الضخمة في تدهور الحضارة الرومانية واندثارها، وقد انتهى هذا الصراع بطرد الفلاحين من أراضيهم والاستيلاء عليها بالقوة، ما أثار حفيظة الفقراء والفلاحين، وجعلهم يطالبون بحقوق النبلاء والإقطاعيين نفسها.

وقد أدى نهب الأقاليم وابتزاز ثرواتها إلى تجمع الثروات في يد قلة من الحكام الأرستقراطيين وأصحاب المصالح والأعمال وجامعي الضرائب، فنشأ في روما نظام رأسمالي مركز نتج عنه الاستحواذ على الأراضي والأملاك بأيد قليلة وإفقار الفلاحين والمزارعين الصغار، إضافة إلى نظام الرق، حيث استخدام الملاك العبيد في زرع الأرض؛ فحلت البطالة والمجاعة بين طبقات كثيرة من الناس. وترتب على ذلك زيادة البطر والبذخ عند الأغنياء وإفقار الجماهير من السكان وازدياد العبيد وعملهم، فالتجأ الفلاحون الذين طردوا وحل محلهم العبيد إلى الهجرة إلى روما، فازداد عدد الجماهير الفقيرة وارتفعت نسبة البطالة، وزادت الفجوة بين الأغنياء والفقراء، وزاد بينهم الحقد

والكراهية، ما ترتب عليه القيام بعدة ثورات لنيل الفقراء حقوقهم، وانضم بعض النبلاء للفقراء، مما ترتب عليه ارتكاب العديد من المؤامرات والاغتيالات وبرز قواد وزعماء وأفل نجم آخرين[١].

وقد كان تدفق الغنائم والمستعبدين من الأسرى من المناطق المغلوبة جراء الانتصارات في ما وراء البحار من أهم أسباب طرد المزارعين الصغار من العمل في مزارع الأغنياء لكي يحل العبيد مكانهم، فانتشرت البطالة والفقر وزادت الفجوة بين الأغنياء والفقراء[٢].

إذًا أسهمت عوامل اقتصادية واجتماعية في سقوط الحضارة الرومانية، أهمها:

١. سيطرة الإقطاعيين على المزارع الضخمة وطرد الفلاحين منها.
٢. بيع الفلاحين الذين ذهبوا للقتال أراضيهم للإقطاعيين.
٣. إحلال العبيد والأسرى محل الفلاحين في العمل في مزارع الإقطاعيين.
٤. نشأة البطالة وزيادة الفجوة بين الطبقات.
٥. الثورات التي أشعلها الفقراء والتي انتهت بأعمال قتل واغتيال ومؤامرات أدت إلى كثير من الاضطرابات الداخلية.

يتضح مما سبق أن الحضارة الرومانية قد ازدهرت لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية، وأيضًا تدهورت لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية لعل من أهمها الصراع على السلطة سواء بين الملوك ومجالس الشيوخ أو مجالس العامة، وكذلك رغبة الإقطاعيين في الثراء الفاحش، ونمو الرغبة في التملك لدى الملوك وسعيهم لاستنزاف ثروات الدول المفتوحة، ما ترتب عليه استخدام العبيد وطرد الفلاحين من الأراضي، ومن ثم عمت البطالة والفقر بين شريحة كبيرة من أبناء المجتمع، وأدى زيادة الفجوة

---

(١) باقر: **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، (ص٦٦٤_٦٦٥).

(٢) قرقوتي: **الحضارة الرومانية _ موسوعة الحضارات القديمة الميسرة**، (ص١٨٣).

بين الطبقات الاجتماعية إلى ثورات واضطرابات ومؤامرات واضطرابات داخلية أسهمت في إضعاف الحضارة الرومانية وتفككها.

لقد كان سوء الأحوال الاجتماعية واستيلاء النبلاء على ثروات البلاد والمزاوجة بين السلطة ورأس المال من أهم العوامل التي أدت إلى انتشار الظلم والشعور به من قبل طبقة المجتمع العريضة التي ضمت العبيد وكذلك الشرائح الفقيرة، ما ترتب عليه الثورات والاضطرابات والبحث عن نظام اجتماعي جديد يوفر الكرامة والحرية والعدالة الاجتماعية، فالظلم الذي تعرضت له طبقة العبيد والطبقات الفقيرة كان من أهم أسباب سقوط الحضارة الرومانية، وعدم صمودها أمام الفتح الإسلامي الذي اعتمد تعزيز القيم الروحية والأخلاقية وتدعيمها، والحرية والمساواة، ما كان إيذانًا بظهور الحضارة الإسلامية.

Openkan.com